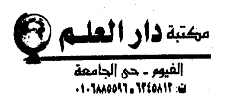
دول الشرق الاسلامي الحديث

قراءة في أسباب الاستدمار الأوربي وآثاره

دكتور
عبدالباري محمد الطاهر
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية المساعد
كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



الفيوم - حي الجامعة
ت: ٦٣٤٥٨١٢ - ٠١٠٦٨٨٥٥٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون﴾

الأنعام [١٥٣]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم فاتحة كل خير ، والحمد لله رب العالمين تمام كل نعمة ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه محاضرات عن "دول الشرق الإسلامي الحديث - قراءة في أسباب الاستدمار الأوربي وآثاره" ، توخيت فيها قدر المستطاع الاختصار والتركيز ، مؤملاً أن أوفق إلى تحقيق عدد من الأهداف ، لعل من أبرزها ما يلي :

(١) التعرف على بعض المصطلحات الحديثة ، مثل : الشرق الإسلامي ، والشرق الأوسط ، وغيرهما من المصطلحات التي وضعت، لتعبر عن مدلول سياسي أو جغرافي أو اجتماعي معين .

(٢) التعرف مظاهر الاستدمار الأوربي لدول الشرق الإسلامي الحديث ، وأسبابه ، وآثاره العسكرية والفكرية .

(٣) إدراك حقيقة الخدعة الأوربية حين طمعت في بلاد الشرق الإسلامي ، بحجة التنوير ، والتطوير ، وأسموا أنفسهم مستعمرين ، أي طلاب تعمير وبناء ، وهم في الحقيقة مستدمرون .

(٤) بيان أسباب تفكك الأمة الإسلامية وضعفها، ومحاولات طمس هويتها، في ظل ما يعرف اليوم باسم "العولمة" كأثر من آثار الاستدمار الأوربي لدول الشرق الإسلامي.

(٥) التعرف على أثر الغزو الفكري في نشأة التيارات والمذاهب الضالة وإحياء الفرق والبدع بين المسلمين، كأثر من آثار الاستدمار الفكري الأوربي.

فضلا عن الأهداف التربوية الأخرى التي تتخلل ثنايا هذه المحاضرات بإذن الله تعالى.

وإنني أدعو الله العلي القدير أن يجمع شتات القلوب، ويهيئ لهذه الأمة أمر رشد، ويدفع عنها وباء الحقد، ويعيدها إلى سالف عهدها عزيزة بدينها ولغتها وحبها للعطاء الإنساني وإعمار الأرض.

دكتور: عبد الباري محمد الطاهر

الحجايزة مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية (abdulbarimt@hotmail.com)

تمهيد

الشرق الإسلامي الحديث :

برزت في عالمنا اليوم عدة مصطلحات ، تلقتها النخبة المثقفة في أمتنا بالقبول والتسليم ، وباتت تبني عليها بحوثها ودراساتها ، وتنشرها عن قصد أو غير قصد ، غير أنه مما ينبغي الإشارة إليه أن مثل هذا العمل كان ينقصه التنويه بتاريخ هذه المصطلحات ، وأسباب إطلاقها ، ومقصد مروجيها ، حتى لا نصبح مقلدين لغيرنا، تاركين ثوابتنا الفكرية التي أكرمنا الله تعالى بها ، ومن بين هذه المصطلحات التي روج لها المثقفون اليوم مصطلح "الإرهاب" الذي أطلقه الغرب ؛ لأغراض خاصة ، ثم سرنا نردده ، ونبحث له عن مدلول واضح ، فلا نجد سوى تعريفات متباينة تختلف من شخص لآخر ، بحسب فهمه وهويته .

وفي السطور التالية سنحاول التعرف على بعض هذه المصطلحات التي نشأت لأغراض مختلفة .

مصطلح "الشرق" :

كان من المعروف قديما أن "الشرق" تعني بلاد الهند والصين ، حيث التجارة العالمية ، ومع التدخل الأوروبي والأمريكي في بلاد

العالم الإسلامي أطلق الأوربيون والأمريكان على أنفسهم لقب (الغرب)، وأطلقوا على الشعوب التي استدمروها، ونهبوا خيراتها في آسيا وأفريقيا لقب (الشرق).

"الشرق الأدنى":

أطلق الأوربيون اسم (الشرق الأدنى) على البلاد الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، التي تتميز بأنها أقرب بقاع العالم الشرقي إلى الغرب جغرافيا، وفكريا، فبلاد الشرق هذه قد شهدت حضارات إنسانية عديدة، منها: الحضارة المصرية القديمة، والحضارة البابلية والآشورية والفينيقية، والحضارة الهيلينية التي نتجت عن التقاء الحضارة اليونانية والفكر اليوناني بفكر الشرق وعقلانيته، بعد أن غزا الإسكندر الأكبر المقدوني الشرق قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون مكونا إمبراطورية كبرى، امتدت من موطنه باليونان "مقدونيا" إلى الهند وأواسط آسيا في الشرق، وشملت مصر حتى الإسكندرية.

"الشرق الأوسط":

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م) استخدم الأوروبيون مصطلح (الشرق الأوسط) ليدل على عالمنا الإسلامي، وانتشر بيننا إلى يومنا هذا. ويضم الشرق الأوسط (دول حوض

البحر المتوسط من الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية له ، مضافا إليها تركيا في الشمال وإيران في الشرق .

وقد يتسع عدد دول الشرق الأوسط ليشمل : مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وشمال أفريقيا والصومال والحبشة وأريتريا ، وكذلك سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والكويت والعراق وتركيا والمملكة العربية السعودية واليمن وعمان ودولة الإمارات العربية المتحدة وإيران، وكذلك أفغانستان وباكستان .

-الشرق الإسلامي- :

وجاء مصطلح الشرق الإسلامي محاولة من المسلمين في الشرق الأوسط لتحديد هويتهم وسط هذا العالم ، باعتبار أن الشرق الإسلامي يتميز بكون الإسلام هو رمز وحدته ، ولعل هذا يتوافق مع الرأي القائل بالغرب المسيحي ، لانتشار الديانة المسيحية في الغرب .

وعلى الرغم من ذلك فإنني أرى أن هذا التقسيم فيه إجحاف لحق المسلمين في دول أخرى كماليزيا وأندونيسيا وغيرهما ، بل في دول أوروبا ذاتها ، مثل البوسنة والهرسك وكوسوفا وغيرهما . فالمسلمون لهم وجود فعلي في هذه البلاد .

ويبدو أن الغرب أعجبه أن نطلق على أنفسنا الشرق الإسلامي، ليتمكن من ابتلاع دول إسلامية تعيش في فلكه الجغرافي، كما أنه أصر على تسميتنا بالشرق الأوسط، ليتمكن من إقحام الصهاينة وسطنا.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد يطلق مصطلح "دول العالم الثالث" أو "الدول النامية" على دول المشرق الإسلامي، لبيان مدى تخلف هذه الدول وبعدهم عن ركب التطور التقني والمدنية الحديثة.

وهذه المصطلحات كلها صنيعة أوربية بغرض تشويش ثوابتنا الإسلامية، إذ من الذي يعد الدول التي خرج منها المصلحون، وكانت مورد العطاء للبشر دول العالم الثالث؟ وأين العالمان الأول والثاني؟

بين الاستدمار والاستعمار:

الاستدمار: يعني السيطرة التي تفرضها دولة قوية على أخرى ضعيفة، وتكون هذه السيطرة عسكرية أو فكرية أو اقتصادية.

وتسميه الدول القوية (استعمارا)، لكنه في حقيقته استدمار، لأنه ظلم بين، واجتراء ظاهر، وتعد سافر على حقوق الآخرين دون مبرر.

الاستعمار: يعني طلب التعمير والسكن والبناء، ولا يكون ذلك إلا بوجود الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: من الآية ٦١). فالاستعمار في الأرض هو البناء فيها وإقامة الحضارة عليها، وتحقيق الأمن والاستقرار فوقها.

۞ ۞ ۞

أهمية موقع دول الشرق الإسلامي

(١) تقع هذه الدول وسط العالم القديم والحديث، حيث تنتشر بين القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوربا).

(٢) تشرف دول الشرق الإسلامي على أهم بحرين في العالم، هما البحر المتوسط والأحمر، بل تحيط بدول الشرق من جميع جهاته تقريبا عدة بحار، ففي الغرب البحر المتوسط، وفي الشرق خليج عمان والخليج العربي وإقليم القوقاز هو مدخل الشرق الإسلامي

(٣) تملك دول الشرق الإسلامي الثروة المعدنية المدفونة في باطن الأرض مما يجعلها منجما مهما يسهم في تطوير مجالات الصناعة والحضارة.

وزاد من أهمية هذه البلاد ظهور البترول الذي يعد أهم مصدر للطاقة في العصر الحديث.

(٤) لدول الشرق الإسلامي أهمية تجارية كبيرة، حيث تملك معظم منافذ الخطوط التجارية بين الشرق والغرب، البرية منها والبحرية، بسبب إطلالها على عدد من البحار والمحيطات والخلجان.

لقد أحدث هذا الموقع المتميز لدول الشرق الإسلامي وحدة مستقلة ، وجعلها تستطيع أن تكون قوة هائلة تواجه أي اعتداء عليها، وتكتفي بما عندها من ثروات وإمكانات بشرية ومادية ، مما أثار حفيظة أوربا التي تناحرت دولها ، ولم تجد ما يساعدها على استمرار الحياة في بلادها إلا بالسطو على دول الشرق الإسلامي ، ولو أنهم طلبوا التعاون معها ، ما تأخرت دول الإسلام التي أمرها ربها بقوله (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)(المائدة: من الآية٢) . إلا أن الأطماع الأوربية الممزوجة بالأحقاد دفعت هؤلاء البشر على الاجتراء على دول الإسلام وتكالبوا عليها . فكان الاستدمار الأوربي الحديث .

الاستدمار الأوربي

لدول الشرق الاسلامي الحديث

أولا : استمرار الحروب الصليبية .

ثانيا : القضاء على الشرق الإسلامي ، وانتهاز فرصة ضعف دولة الخلافة العثمانية للسيطرة عليها وعلى ممتلكاتها .

ثالثا : الإفادة من خيرات الشرق الإسلامي ، وثرواته الطبيعية في تحقيق التقدم التكنولوجي .

رابعا : السيطرة التجارية المتمثلة في السيطرة على مناطق التواصل التجاري بين دول العالم .

خامسا : السيطرة على مناطق الخصوبة والنماء .

أهم وسائل الاستدمار الأوربي

(أ) ادعاء التطوير : ادعت الدول الأوربية أنها قامت بالسيطرة على شعوب أسمتهم (العالم الثالث) ، ورأت أن دخولها على هذه الشعوب كان من أجل تحضيرهم وتطويرهم ، وهذه رسالة الرجل الأبيض تجاه شعوب العالم الثالث .

(ب) انتهاز الفرص : كانت دولة الخلافة العثمانية الإسلامية باسطة ذراعيها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين على غرب ووسط «آسيا» وشمال «إفريقيا»، وجنوب شرق «أوربا»، ثم أخذت الدولة العثمانية في الضعف ، فطمعت دول «أوربا» في ممتلكاتها ، وقررت الانقضاض على فريستها ؛ استدمارا لها من جانب ، وسيطرة على مناطق الخصوبة والنماء من جانب آخر .

وفي الصفحات التالية نعرض لبعض صور الاستدمار الأوربي لعدد من بلدان الشرق الإسلامي ، وأسباب هذا الاستدمار، ثم النتائج المترتبة عليه ، مؤكدين على تسمية ما فعلته فرنسا وانجلترا (بريطانيا) وإيطاليا وروسيا بالاستدمار ، وليس (الاستعمار) ، لأنهم ما عمروا شيئا في تلك الدول ، وما نالت تلك الدول منهم خيرا مطلقا .

بدأت العلاقة بين فرنسا ودول الشرق الإسلامي منذ وقت مبكر حين قادت فرنسا حملات صليبية ، وشاركت في أخرى، للسيطرة على دول الشرق الإسلامي ، ودخول بيت المقدس ، واستنزاف ثروات المسلمين ، بحجة حماية الصليب ، وقد تعرضت مصر لحملتين صليبيتين في عهد الدولة الأيوبية، قادتهما فرنسا، كانت الأولى بقيادة "جان دي برس" وعرفت بالحملة الصليبية الخامسة (٦١٨هـ= ١٢٢١م) ، وقد هزمت ، وكانت الأخرى بقيادة الملك "لويس التاسع" ، وهي الحملة الصليبية السابعة (٦٤٨هـ=١٢٥٠م) ، وقد منيت هي الأخرى بهزيمة ساحقة لاتزال أخبارها شاهدة للعيان في مدينة المنصورة حتى اليوم ، حيث دار ابن لقمان التي أسر فيها لويس التاسع .

رغبة فرنسا في استدمار مصر :

واستمرت رغبة فرنسا في احتلال مصر تتقد عبر السنين. وإحساسهم بالفشل أمام جزء من دول الشرق الإسلامي يثير في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، وبدأ التخطيط لهجوم كاسح لابد منه ، بدأوه بإرسال من يتعرف على دقائق حياة الشعب المصري ،

وقد جاؤوا في صورة سائحين، أو تجار، أو طلاب علم، فأخذ هؤلاء يسجلون دقائق الحياة، و يرسلونها في تقارير مفصلة إلى قادتهم هناك، تزين لفرنسا الاستيلاء على مصر.

وعبر ستة قرون لم تخمد فيها جذوة الحقد الفرنسي، منذ فشلوا في دخول مصر مع الحملات الصليبية، وأضمروا "الثأر" للويسهم التاسع، وخططوا بهدوء وروية؛ لعودة الحروب الصليبية مرة أخرى، ولكن في ثوب استدماري جديد، يجمع بين قوتين عسكرية وفكرية، أملا في تحقيق ما فشلت فيه قواتهم قبل ستة قرون.

وفي (٢٢ من شعبان ١٢١٢هـ = ٩ من فبراير ١٧٩٨م) أرسل "شارل مجالون" القنصل الفرنسي في مصر تقريره [1] إلى حكومته يحرضها على ضرورة احتلال مصر، ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، ويعدد لها المزايا التي ينتظر أن تجنيها فرنسا من وراء ذلك.

---

(١) كشفت تقارير "سانت بريست" سفير فرنسا في الأستانة منذ سنة (١٧٦٨م) و"البارون دي توت" والمسيو "مور" قنصل فرنسا في الإسكندرية ضعف الدولة العثمانية، وأنها في سبيلها إلى الانحلال، ودعت تلك التقارير إلى ضرورة الإسراع باحتلال مصر، غير أن الحكومة الفرنسية ترددت ولم تأخذ بنصائحهم، احتفاظا بسياستها القائم ظاهرها على الود والصداقة للدولة العثمانية.

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون قدم "تاليران" وزير الخارجية الفرنسية آنذاك لحكومة فرنسا تقريرا آخر، بين فيه ما يلي:

(١) العلاقات التاريخية بين فرنسا ومصر.

(٢) الآراء التي تنادي بمزايا دخول مصر، والحجج التي تؤكد أن الفرصة سانحة لإرسال حملة إليها.

(٣) وسائل تنفيذ مشروع احتلال مصر، من حيث: إعداد الجنود، وتجهيز السفن اللازمة لحملهم، وخطة الغزو العسكرية ودعا إلى مراعاة تقاليد أهل مصر وعاداتهم وشعائرهم الدينية، وإلى استمالة المصريين وكسب مودتهم بتبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأي منهم؛ لأن هؤلاء العلماء أصحاب مكانة كبيرة عند المصريين.

وقد احتل هذا التقرير مكانة كبيرة في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر؛ لأن الحكومة الفرنسية أخذته مأخذ الاهتمام البالغ، وفي (٢٦ شوال ١٢١٢هـ = ١٢ من إبريل ١٧٩٨م) أصدرت قرارها التاريخي بوضع جيش الحملة تحت قيادة نابليون بونابرت.

وتضمن القرار مقدمة وست مواد : اشتملت المقدمة على الأسباب التي دعت الحكومة الفرنسية إلى إرسال حملتها على مصر، وهي :

(١) عقاب المماليك الذين أساءوا معاملة الفرنسيين ، واعتدوا على أموالهم وأرواحهم .

(٢) البحث عن طريق تجاري آخر بعد استيلاء الإنجليز على طريق رأس الرجاء الصالح ، وتضييقهم على السفن الفرنسية في الإبحار فيه .

وشمل القرار :

(١) تكليف نابليون بطرد الإنجليز من ممتلكاتهم في الشرق، ، وفي الجهات التي يستطيع الوصول إليها .

(٢) القضاء على مراكز الإنجليز التجارية في البحر الأحمر .

(٣) العمل على شق قناة برزخ السويس .

وبدأت الاستعدادات لتجهيز الحملة على خير وجه ، وكان قائد الحملة الجنرال نابليون يشرف على التجهيز بكل عزم ونشاط ويتخير بنفسه القادة والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين، وعني بتشكيل لجنة من العلماء عرفت باسم لجنة

العلوم والفنون وجمع كل حروف الطباعة العربية الموجودة في باريس لكي يزود الحملة بمطبعة خاصة بها .

وقبل أن نشرع في الحديث عن حملة نابليون لابد من التعرف على هذه الشخصية .

نابليون بونابرت (Napole'on Bonaparte)(١٧٩٩ـ١٨٢١م):

امبراطور فرنسا الشهير . وُلد نابليون في مدينة "أجاكسيو" بجزيرة كورسيكا.

وتلقى تعليمه وتدريبه العسكري في فرنسا ، ثم تخرج وهو في السادسة عشرة من عمره (عام ١٧٨٥م) برتبة ملازم ثان في الجيش الفرنسي. في سنة ١٧٩٦ م ، وأصبح قائدا للجيش الفرنسي في ايطاليا وبفضل انتصاراته في الجبهة الإيطالية بين الأعوام ١٧٩٧/١٧٩٦م,

ثم عاد نابليون إلى فرنسا بطلا وطنيا. وفي سنة ١٧٩٨م قام بحملته الشهيرة على مصر ومن ثم على فلسطين, التي كانت نهايتها الفشل الذريع لنابليون وجيشه[٢] .

---

(٢) بعد مغادرة نابليون مصر في أعقاب فشله باحتلال عكا (١٧٩٩م) عاد إلى فرنسا ليشارك في انقلاب عسكري مع آخرين كانت نتيجته قيام حكومة جديدة وتعيين نابليون القنصل الأول لفرنسا , وسرعان ما أصبح حاكما دكتاتوريا بفرنسا.
وفي أثناء حكمه لفرنسا أدخل إصلاحات جوهرية, خاصة في النظام الإداري والتشريعي, واهتم كذلك بإصلاح النظام المالي والقضائي, وأنشأ بنك فرنسا وجامعة فرنسا.

بداية حملة نابليون الاستدمارية :

في (٣ من ذي الحجة ١٢١٢ هـ = ١٩ من مايو ١٧٩٨م) أبحرت الحملة من ميناء طولون ، وتألفت من نحو (٣٥) ألف جندي، تحملهم (٣٠٠) سفينة ، ويحرسها أسطول حربي فرنسي مؤلف من (٥٥) سفينة ، وفي طريقها إلى الإسكندرية استولت الحملة على جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا آخر فلول الصليبيين . وعرف هذا الجيش بـ (جيش الشرق) الفرنسي .

وتسربت أخبار الحملة الفرنسية إلى بريطانيا على الرغم من السرية التامة التي أحاطت بتحركات هذه الحملة وبوجهتها، وبدأ الأسطول البريطاني يراقب الملاحة في البحر المتوسط ، واستطاع نيلسون قائد الأسطول البريطاني الوصول إلى ميناء الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية بثلاثة أيام ، وأرسل بعثة صغيرة للتفاهم مع السيد "محمد كريم" حاكم المدينة ، وإخباره أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بحملة كبيرة ، وقد يهاجمون الإسكندرية التي لن تتمكن من دفعها ومقاومتها،

ولعل أهم أعماله ما عُرف بـ "دستور نابليون". عُرف عن نابليون قصر قامته، وعشقه للنساء وفشله بحياته الزوجية وذكائه النادر. احرز بفضل نبوغه وعبقريته انتصارات باهرة في ميادين القتال والمعارك. توفي بمرض السرطان سنة ١٨٢١م، بمنفاه في جزيرة "سانت هيلانه" في المحيط الأطلسي.

لكن السيد محمد كريم ظن أن الأمر خدعة من جانب الإنجليز لاحتلال المدينة تحت دعوى مساعدة المصريين لصد الفرنسيين، وأغلظ القول للبعثة؛ فعرضت أن يقف الأسطول البريطاني في عرض البحر لملاقاة الحملة الفرنسية، وأنه ربما يحتاج للتموين بالماء والزاد في مقابل دفع الثمن، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض.

وفي (١٨ من المحرم ١٢١٢هـ = ٢ من يوليو ١٧٩٨م) وصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية ودخلت المدينة بعد ساعات من مقاومة أهلها وحاكمها السيد محمد كريم، وراح نابليون يذيع منشورا على أهالي مصر، تحدث فيه عن سبب قدومه لغزو بلادهم، وهو: تخليص مصر من طغيان البكوات المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية، وأكد في منشوره على احترامه للإسلام والمسلمين، وبدأ المنشور بالشهادتين وحرص على إظهار إسلامه وإسلام جنده كذبا وزورا، وشرع يسوق الأدلة والبراهين على صحة دعواه، وأن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، فقال: "إنهم قد نزلوا روما وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة المسلمين،" وأنهم قد قصدوا مالطة وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

وأدرك نابليون قيمة الروابط التاريخية الدينية التي تجمع بين المصريين والعثمانيين تحت لواء الخلافة الإسلامية؛ فحرص ألا يبدو في صورة المعتدي على حقوق السلطان العثماني؛ فعمل على إقناع المصريين بأن الفرنسيين هم أصدقاء السلطان العثماني

غير أن سياسة نابليون الخادعة هذه لم تزد المصريين إلا تصميما على مقاومة الاحتلال، ومواجهته بكل الوسائل، فظهرت بطولات نادرة في مقاومة الاحتلال، الذي بدأ زحفه نحو القاهرة، وهو يدمر كل شيء أمامه.

وفي مساء يوم (١٩ من المحرم ١٢١٢ هـ = ٣ من يوليو ١٧٩٨ م) زحفت الحملة على القاهرة، عبر طريقين أحدهما بري سلكته الحملة الرئيسية من الإسكندرية إلى دمنهور فالرحمانية، فشبراخيت، فأم دينار على مسافة ١٥ ميلا من الجيزة. وأما الطريق الآخر فبحري وسلكته مراكب الأسطول الخفيفة في فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة.

واستمرت مقاومة الحملة في كل بلد تمر عليها، ففي (٢٩ من المحرم ١٢١٣هـ = ١٣ من يوليو ١٧٩٨م) كانت أول موقعة بحرية بين مراكب المماليك والفرنسيين عند "شبراخيت"، وكان جموع

الأهالي من الفلاحين يهاجمون الأسطول الفرنسي من الشاطئين ، غير أن الأسلحة الحديثة التي كان يمتلكها الأسطول الفرنسي حسمت المعركة لصالحه ، واضطر مراد بك قائد المماليك إلى التقهقر صوب القاهرة .

وفي (٧ من صفر ١٢١٣ هـ = ٢١ من يوليو ١٧٩٨م) التقى مراد بك بالفرنسيين عند منطقة إمبابة في معركة أطلق عليها الفرنسيون معركة الأهرام . وكانت القوات المصرية كبيرة غير أنها لم تكن معدة الإعداد المناسب ؛ فلقيت هزيمة كبيرة وفر مراد بك ومن بقي معه من المماليك إلى الصعيد ، وكذلك فعل إبراهيم بك شيخ البلد، وأصبحت القاهرة بدون حامية، وسرت في الناس موجة من الرعب والهلع خوفا من الفرنسيين .

وفي يوم (١٠ من صفر ١٢١٣هـ = ٢٤ من يوليو ١٧٩٨م) دخل نابليون مدينة القاهرة تحوطه قواته من كل جانب ، وفي اليوم الثاني لدخوله القاهرة أنشأ نابليون ديوان القاهرة من تسعة من كبار المشايخ والعلماء لحكم مدينة القاهرة ، وتعيين رؤساء الموظفين، غير أن هذا الديوان لم يتمتع بالسلطة النهائية في أي أمر من الأمور، وإنما كانت سلطة استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء بعدم القيام بأي عمل يكون موجها ضد مصلحة الجيش

الفرنسي، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الديوان سوى تكريس الاحتلال الفرنسي والعمل تحت رقابة وأعين السلطات الفرنسية .

ومع أن نابليون حاول تنظيم أمور السلطة والحكم في مصر وإصلاح الجهاز الإداري، فقد أمر بإقامة ديوان ضم كبار المشايخ وعلماء الدين بداية في القاهرة ومن ثم في بقية الألوية والمحافظات. وهذه الدواوين تمتعت بصلاحية تنفيذية بما يتعلق بالأمور المدنية والحياة العامة للسكان كالمراقبة والإشراف على الأسواق ودوريات شرطة للمحافظة على الأمن العام ومراقبة عبور القوارب والبواخر في النيل وما شابه, ومن ثم تم انتخاب ديوان عام شمل ٢٥ عضوا, كان بمثابة البرلمان أو الجمعية التحضيرية والاستشارية لنابليون لإدارة شؤون مصر.

كما ذكر سابقا رغم التغييرات التي أدخلها نابليون في الإدارة والحكم لكن ذلك نفذ بما يتلاءم والمصالح الفرنسية وبما يتماشى مع أهداف ومصالح نابليون نفسه. فألزم السكان المصريين برفع العلم الفرنسي في كل مكان, وتعامل الفرنسيون مع السكان المحليين كأسيادهم الجدد, والصلاحيات التنفيذية المهمة والواسعة بقيت من ضمن صلاحية القائد الأعلى وممثليه. وحينما أثقل نابليون أبناء الشعب المصري بالضرائب

وانتشار أعمال القتل والنهب وأساليب المعاقبة الجماعية التي نفذها نابليون وجنوده بحق كل من يخالف أوامره، اثار هذا التصرف وهذه السياسة نقمة واستياء جماهير المصريين. وفي أكتوبر سنة ١٧٩٨م ثار سكان القاهرة ضد الفرنسيين وقامت جماعات من المصريين بمهاجمة دوريات الفرنسيين وتعطيل طرق مواصلاتهم وأتباع القوات الفرنسية سياسة اليد الحديدية وأساليب القمع وإحراق القرى وما شابه لكل من خالفهم وقاومهم، كل ذلك لم يزد إلا من نقمة أبناء الشعب المصري ضد جيش الغزاة الفرنسي.

فشل نابليون بفرض السيطرة والهدوء في مصر ومحاولات المماليك الثأر من نابليون وجيشه بعد هزيمتهم أمامه بشن غارات بين الحين والآخر والحاق الخسائر في صفوف الجيش الفرنسي وإعلان السلطان العثماني الحرب والجهاد ضد نابليون وجيشه وتخوف نابليون من قدوم جيش عثماني ومواجهته في مصر، جعله يضع أمور مصر جانبا ويستعد لخطوته التالية، وهي مواجهة الجيش العثماني المتحالف مع الإنجليز في الشام وليبدأ نابليون بالتحضير والاستعداد لشن حملة عسكرية على فلسطين والشام في بداية سنة ١٧٩٩م.

وقبل أن نناقش بعض الأمور المرتبطة بحملة نابليون الاستدمارية ، يمكن تحديد أهم أسباب هذه الحملة فيما يلي:

أسباب الحملة الاستدمارية الفرنسية :

أولا: أطماع فرنسا الاستدمارية بفرض سيادتها وسيطرتها على الطريق التجارية القصيرة بين البحر المتوسط والهند والتي تمر بدول الشرق الإسلامي .

ثانيا: الانتقام من بريطانيا ؛ لإعلانها الحرب على فرنسا التي فشلت في مهاجمة بريطانيا واحتلالها ، فرأت أن دول الشرق وبخاصة مصر أنسب ميدان لمواجهتها .

ثالثا: كانت مصر من أغنى ولايات وأجزاء الامبراطورية العثمانية من الناحية الاقتصادية والتجارية, عدا عن كونها مركزا استراتيجيا وتجاريا مهما ومصدرا للمنتوجات الزراعية بسبب خصوبة أراضيها وإمكانية استغلالها لإنتاج المحاصيل الزراعية في المستقبل.

رابعا: ضعف دولة الخلافة العثمانية في استانبول وسقوط هيبتها كدولة قوية وعظمى بأعين الدول الأوروبية.

خامسا: البحث عن فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع الفرنسية والسلع المصنعة من فرنسا.

سادسا: اتهام الحكومة الفرنسية مصر باضطهاد التجار الفرنسيين من قبل المماليك الموالين لإنجلترا ، والعمل على حمايتهم

سابعا: كره رجال الحكومة الفرنسية لنابليون القائد العسكري الذي نبغ بالحنكة والتكتيك العسكري , وسعيهم للتخلص من وجوده في فرنسا وإبعاده إلى منطقة بعيدة عن مركز السلطة, على أمل ألا يعود مطلقا إلى فرنسا.

ثامنا: الطموح والأطماع الشخصية لنابليون بونابرت بإقامة إمبراطورية فرنسية عظمى, تكون صاحبة السيادة في الشرق والغرب بدون منازع.

تاسعا: الوضع السياسي والعسكري الدولي عشية الحملة, كان ملائما لخروج حملة عسكرية على مصر, فالسلطنة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن ولاياتها وأراضيها وروسيا القيصرية والنمسا منشغلتان بالحرب فيما بينهما باقتسام أراضي بولندا وبريطانيا عدوة فرنسا ولعدم معرفتها بوجهة الحملة, ستركز طاقاتها وقوتها بالدفاع عن بريطانيا والجزر البحرية التابعة لها, ولم تأخذ بالحسبان إمكانية السيطرة الفرنسية على الطريق التجارية للهند, مركز بريطانيا التجاري والاقتصادي.

آثار الحملة الاستدمارية الفرنسية :

لقد كانت حملة نابليون على مصر حدثا خطيرا استهدف الأمة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه غافلة عما يجري في أوربا من تطور في فنون القتال وتحديث أنواع الأسلحة ونهضة شاملة، وكان نابليون يمني نفسه باحتلال إستانبول عاصمة الدولة العثمانية وتصفية كيانها باعتبارها دولة إسلامية كبرى وقفت أمام أطماع القارة الأوروبية، وذلك بعد أن يقيم إمبراطورية في الشرق، وقد عبر نابليون عن هذا الحلم بقوله: "إذا بلغت الآستانة خلعت سلطانها، واعتمرت عمامته، وقوضت أركان الدولة العثمانية، وأسست بدلا منها إمبراطورية تخلد اسمي على توالي الأيام...".

فهل أدت حملة نابليون إلى يقظة الأذهان في المشرق العربي، فأحست بالحاجة الماسة إلى نفض غبار الجمود ، والأخذ بأساليب حضارية ملائمة لحاجات العصر ومتطلباته.

استدمار اليقظة من آثار الحملة الفرنسية :

أكد المرحوم الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر (المصري) أن الحملة الفرنسية جاءت لتدمير اليقظة التي بدأت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، وهو يقابل نهاية القرن

السابع عشر إلى نهاية الثامن عشر، حيث ظهر في هذين القرنين خمسة من الأعلام، أسماهم الشيخ صناديد النهضة الإسلامية هم:

(١) عبد القادر البغدادي، صاحب الخزانة المتوفى ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م.

(٢) الجبرتي الكبير، المتوفى ١١١٨هـ/ ١٧٧٤م.

(٣) الشيخ محمد بن عبدالوهاب، المتوفى ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م.

(٤) المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس المتوفى ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م.

(٥) الشوكاني، المتوفى ١٢٥٠هـ/ ١٨٤٠م.

ومن درس تاريخ هؤلاء الرجال وما أحدثوه من يقظة تأكد أن الزحف العسكري الصليبي من هذا التاريخ حملة نابليون على مصر كانت سنة ١٧٩٨م إنما كانت لتدمير هذه اليقظة، وأن المسافة بيننا وبينهم في هذا الزمن قريبة يمكن أن تدرك بقليل من الجد.

وهذا المعنى أكده الشيخ محمود شاكر تأكيدا قاطعا بما رواه من أحداث ثورة القاهرة الكبرى على الوجود الفرنسي، وكان ذلك في ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣هـ ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض مصر، فارتكب في قمع

هـذه الثورة من القسوة والتدمير، وذبح الرجال والنساء، وسفح الدماء الغزيـرة ما ارتكب، ونذر أن يذبح عند شروق كل شمس خمسة أو ستة تقطع رؤوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة . ويقول الشيخ: لاشـك عـندي أن هـؤلاء الخمـسة أو الـستة هـم من طلاب العلم في الأزهـر، ومـن المحرضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة ديار الإسـلام، وأن الاستـشراق هـو الـذي كان يقدمهم لهذا الجزار ، وأنه كـان يـتخيرهم لـه، لأنـه كـان علـى معـرفة سـابقة بهـم، وأنهم كـانـوا من الطلبة النابهين من ورثة الجبرتي الكبير، والزبيدي، أي أنهـم كـانـوا مـن طلائـع الـيقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كـل شـيء لـوأدها في مهـدها، وممـا لا ينسى أن الفرنسيين قاموا بقـتل ثلـث ملـيون مـصري في وقت كانـت تعداد مصر لا يتجاوز ملـيونين و٤٦٠ ألـف نسمة، وهدموا الكثير من القرى التي ثارت ضد جـيش الاحـتلال، والعديـد مـن أحـياء المـدن، وكـان من أهداف هذه الحملـة كمـا يقـول "جـورج سـوردون" أن الأسـلحة الفرنـسية اسـتخدمت لتطبـيق القانـون الفرنسي.. فقانون نابليون هو الثمرة لمدافع نابليون.

إن النهـضة ووسائلها لم تكن في حسبان الغازين، فالمطبعة الـتي أحـضرها نابلـيون مـن إيطالـيا كانت لطبع بيانات التضليل

للشعب المصري، تلك التي زعم فيها أنه مسلم أكثر من المماليك، وأنه نصير لخليفة المسلمين، ثم خرجت هذه المطبعة من مصر بخروج الحملة الفرنسية، ومما لا ينسى أيضا أن نهاية كليبر خليفة نابليون كانت على يد شاب أزهري هو "سليمان الحلبي" القادم من بلاد الشام.

استدمار الفرنسيين للشام :

تذكر بعض المصادر التاريخية أن نابليون بونابرت زار بيت المقدس سنة ١٧٩٨م أي قبل وقت قصير من مغامرته الفاشلة في فلسطين، والتي هدف من خلالها إلى تأمين حملته في مصر ، وذلك بمبادرة ذاتية منه ، إذ يؤكد مؤرخو الحملة الفرنسية ، أن فلسطين لم تكن من بين أهدافها ، وأن وجود الفرنسيين في مصر كان كفيلا بتحقيق أحد أهم أهداف الحملة ، وهو مواجهة النفوذ البريطاني المتزايد ، والتشويش على طرق التجارة البريطانية .

نشأت فكرة مهاجمة فلسطين كنوع من الحل لمصير الحملة الفرنسية البائسة، فقد اقترحت الحكومة الفرنسية ثلاثة حلول على نابليون ، إما البقاء في مصر والدفاع عنها في مواجهة التحالف العثماني، الإنكليزي، الذي انضمت إليه روسيا، وإما التوجه لمهاجمة الهند ، وإما الزحف إلى القسطنطينية .

وهـي حلول لم تكن تلائم القوة الفرنسية الضعيفة والتي لا تستطيع تحقيق أي من هذه الأهداف وأيسرها البقاء في مصر.

وصلت هذه الحلول إلى بونابرت أثناء حصاره عكا .ما يعني أنـه بـادر ذاتـيا بالهجـوم ، في عـام ١٧٩٩م بواسـطة ثلاثة عشر ألف جـندي ، فاحتل العريش ، ثم خان يونس فغزة . وتوجه لاحتلال اللد والرملة .

وفي بـيت المقدس ، بدأت الاستعدادات لمواجهة الفرنسيين . إذ أن سـقوط الـرملة يعتـبر عادة إيذانا بالهجوم على القدس . ولكن نابلـيون ، وبدل التوجه إلى بيت المقدس والتورط في الجبال المحيطة بها، اختار الهجوم على يافا ، لتبدأ نهاية حملته عمليا .

صـحيح أن الحملـة الفرنـسية تحطمـت أمـام أسـوار عكا . لكن نهايتها ارتسمت بمجزرة يافا .

في مـارس مـن العام نفسه احتل نابليون يافا بعد قتال استمر ثلاثة أيام، وبعد القتل والنهب والهتك ، وجد جنوده ثلاثة آلاف أسير في أبـراج المديـنة، فأمـر بقـتل ألفـين وخمـسمئة مـنهم في مجـزرة وحـشية، سـوف تـنقلب آثارها عليه، فتفسخ جثث الأسرى مع جثث ألفـين استـشهدوا أثناء الدفاع عن المدينة ، أدى إلى انتشار الطاعون

الذي أصاب الفرنسيين . وشكل عاملا إضافيا لهزيمتهم إلى جانب صمود عكا .

بعد مجزرة يافا ، تزايدت الاستعدادات في القدس لتنظيم الدفاع عنها . ولكن بدل أن يرسل نابليون جنوده إلى المدينة ، أرسل كتابا طويلا ، يشبه الكتب التي وجهها إلى المدن الأخرى . وفيها كثير من التملق ، وكثير من التهديد أيضا . فقد اختتم كتابه إلى أهل القدس مطالبا بتسليم المدينة . وتلقى ردا دبلوماسيا ذكيا .

كان المقادسة على ما يبدو واثقين من صلابة عكا ، كما أنهم أرادوا كسب مزيد من الوقت ، فكتبوا إلى نابليون، أنهم لا يرغبون في الحرب لأن بلدهم مقدسة ، وبها أماكن مقدسة إسلامية ومسيحية ولا يريدون للحرب أن تدمر هذه الأماكن .

وغير ذلك فهم تابعون لولاية عكا . ومن يستطيع السيطرة عليها ، يكون بإمكانه إصدار الأوامر إلى القدس .

راهن نابليون على سقوط بيت المقدس بعد سقوط عكا ، ولذلك وجه قواته إلى حيفا فاحتلها ثم احتل الناصرة ، وبدأ يضرب الحصار على عكا برا لأن الأسطول الإنكليزي المتحالف مع العثمانيين منع حصارها البحري ، وأبدى واليها عبدالله الجزار

صلابة في الدفاع عنها مع جنود الحامية وأهل عكا ، ما أدى إلى فشل نابليون في احتلالها وبالتالي فشل حملته كليا إذ اضطر إلى مغادرة فلسطين، وترك لأحد نوابه : كليبر ، تدبر أمر انسحاب الجنود إلى مصر .

علاقة نابليون باليهود :

لا يكتمل الحديث عن الحملة الفرنسية على فلسطين دون الإشارة إلى علاقة نابليون بالصهاينة وسعيه إلى إيجاد موطن قدم لهم في فلسطين إبان حملته تلك .

فقبل تحرك الحملة من فرنسا إلى مصر ، تلقى بول باراباس ، عضو حكومة الإدارة في باريس من صديقه توماس كوريت ، الرأسمالي اليهودي الايرلندي، رسالة ينصحه فيها بالاستفادة من اليهود الذين وصفهم بأنهم : يقدمون لكم عنصرا يمكن الاعتماد عليه في الشرق .

وضع الاقتراح أمام نابليون الذي التقى شخصيات يهودية، ما لبثت أن أصدرت بعد اللقاء بيانا تدعو فيه إلى إقامة مجلس ينتخبه اليهود في خمسة عشر بلدا، ليقرر ما يجب عمله . وإبلاغ ذلك إلى الحكومة الفرنسية . كما دعت إلى إقامة وطن يهودي بالاتفاق

في فرنسا ، في إقليم الوجه البحري من مصر ، مع حفظ منطقة واسعة المدى ليمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومنه إلى البحر الأحمر.

وفي أثناء حصار عكا سنة ١٧٩٩م ، نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية بيانا من نابليون يدعو فيه اليهود إلى مؤازرة فرنسا ، وانتهاز فرصة وجوده في فلسطين لتحقيق آمالهم في التوضع ما بين عكا والإسكندرية .

كان نابليون يريد دعم الرأسمالية اليهودية ، وعندما فشلت حملته ، كانت بريطانيا التقطت المسألة وبدأت العمل من أجلها .

نابليون يغزو فلسطين :

في شهر شباط عام ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م, توجه نابليون على رأس جيش فرنسي قوامه ١٣,٠٠٠ جندي بحملة عسكرية نحو فلسطين, هدفها احتلال فلسطين والشام وإخضاعها للسيطرة الفرنسية ومن ثم القضاء على السلطنة والامبراطورية العثمانية في اسطنبول, مع أن الهدف المعلن والرئيسي للحملة هو استباق الخطر العثماني وإقامة منطقة عازلة بين مصر واسطنبول.

الجيش الفرنسي اتبع طريق الساحل الفلسطيني من الجنوب نحو الشمال ولم يتوغل في داخل البلاد, ربما لسهولة طرق المواصلات والإمدادات والقرب من البحر والموانىء الفلسطينية إذا احتاج الأمر.

وفي سنة ١٧٩٩م احتل الجيش الفرنسي مدينة العريش وبعدها غزة, بعد مقاومة بسيطة للسكان المحليين وحاميتي المدينتين, لم تستطع ايقاف الزحف الفرنسي. وفي ١٧٩٩/٣/٧م سقطت مدينة يافا بأيدي الفرنسيين, بعد مقاومة جبارة وباسلة لسكان وحامية المدينة ضد قوات نابليون. وبعد استسلام المدينة واحتلالها ارتكب نابليون وجنوده أبشع أعماله قسوة وغير إنسانية حين قتل وأعدم ما يزيد عن ألفين من حامية يافا وأعدموا آلاف الأسرى الآخرين بمجزرة رهيبة ارتكبتها القوات الفرنسية, ويقدر عدد الذين قتلوا وأعدموا في يافا بنحو ٤٠٠٠ أسير من الجنود والمدنيين.

بعد احتلال مدينة يافا, تابع نابليون وجيشه تقدمهم شمالا, عبر طريق الساحل الفلسطيني, والهدف احتلال مدينة عكا وإخضاع واليها, أحمد باشا الجزار, حاكم عكا آنذاك. خلال تقدم الجيش الفرنسي شمالا واجهته صعوبات جمة كالأمراض

والتعب وقلة المؤن والعتاد، وحتى خسارة عسكرية بالقرب من نابلس. وفقط بفضل قوة الدعم الفرنسية التي وصلت من مصر لمساندة نابليون بقيادة الجنرال كليبر (Kl'eber)، استطاع الجيش الفرنسي مواصلة الطريق واحتلال مدينة حيفا في ١٧/٣/ ١٧٩٩م، وقوة الدعم العسكري بقيادة كليبر هي التي استطاعت في الواقع احتلال وإخضاع مدينة حيفا حيث أن هذه القوة التي وصلت عن طريق البحر.

سبقت نابليون وقوته بالوصول لمشارف حيفا. وقوات كليبر لم تلقَ في الواقع مقاومة تذكر من قبل سكان المدينة بعد أن نزح عنها الجزار وجلب مدافع وحامية المدينة إلى عكا. وسكان حيفا اكتفوا بايفاد أحد سكان المدينة وكان من أصل أوروبي الذي انتظر قدوم الفرنسيين خارج بوابات ومداخل المدينة، وقام بتسليم الجنرال كليبر مفاتيح المدينة. وبعد ذلك التاريخ ١٧/٣/١٧٩٩م، انضم نابليون وقوته إلى قوات كليبر لتتشكل قوة مشتركة للجيش الفرنسي بقيادة نابليون وكليبر، متوجهين نحو هدفهم التالي والصعب وهو احتلال مدينة عكا وإخضاع الجزار، وقد بلغ عدد الجنود الفرنسيين نحو ١٢ ألف جندي.

في ١٩ مارس سنة ١٧٩٩م, وصل الجيش الفرنسي لمشارف مدينة عكا وفرض الحصار حول المدينة وباشر بضربها بالمدفعية. فقط من الجهة الغربية, من البحر والميناء, بقي مفتوحا وتمركزت في الميناء قوة بحرية انجليزية لمساندة الجزار. أثناء حصار نابليون لعكا تركزت قيادة الجيش الفرنسي, على هضبة إلى الشرق من مدينة عكا تدعى بتل الفخار (عرفت فيما بعد بتل نابليون)[3].

كان أحمد باشا الجزار (١٧٧٥-١٨٠٤م)[4] حاكم ووالي عكا والمنطقة خلال الحصار الفرنسي ، وقد اهتم الجزار بتحصين

---

(٣) تل نابليون (أو تل الفخار) : تل وهضبة ترابية تبعد ١ كم إلى الشرق من أسوار مدينة عكا (بجانب ملعب كرة القدم البلدي). يعتقد أنه مكان عكا القديمة الكنعانية. استخدم التل جميع الفاتحين لضرب المدينة أمثال صلاح الدين الأيوبي وريكاردوس قلب الأسد, وكان آخرهم نابليون، حيث تركزت على التل مقر قيادته ومعسكر جيشه خلال فترة حصاره لعكا (١٧٩٩). وقد أجريت في الموقع حفريات أثريه كثيرة، تم الكشف خلالها على آثار وقبور قديمة، بعضها يعود للفترة الرومانية.

(٤) أحمد باشا الجزار (١٧٧٥-١٨٠٤) : كان أحمد باشا الجزار مملوكا بشناقي الأصل، ولد نصرانيا في البوسنة، ومعظم كتب ومراجع التاريخ تجهل سنة ولادته. اقترف وهو صبي جرما أخلاقيا، فر على أثره إلى اسطنبول وهناك باع نفسه لنخاس يهودي، حيث باعه مع عدد من الصبيان في القاهرة، وكان من نصيب تاجر مصري أسلم على يديه وسمي (أحمد). خدم في مصر عددا من الأشخاص والبكوات، من بينهم علي بك الكبير في القاهرة، الذي عينه جلادا في قصره، وقد أظهر من المواهب والتفنن في انفاذ مهمته والرغبة بالقيام بها، مما أكسبه لقب "الجزار"، خاصة بسبب بطشه الشديد ببدو إقليم البحيرة. في مصر نال الجزار رتبة الباكوية. انتقل بعد ذلك إلى الشام مع بعض مماليكه وكلف من قبل السلطات العثمانية بدمشق بحماية بيروت. وهناك تمرد على حاكمها الأمير يوسف الشهابي. وبعد القضاء على ظاهر العمر الزيداني عام ١٧٧٥، حاكم عكا والجليل، عين السلطان العثماني أحمد باشا الجزار محافظا لعكا. وفي عام ١٧٧٦ عين واليا على صيدا من قبل السلطان ومنح رتبة وزير ولقب باشا. اتخذ الجزار عكا مركزا له مستعينا بجيش من المماليك المرتزقة، ولجأ إلى أعمال السخرة في تحصين المدينة. بلغ الجزار أوج مجده سنة ١٧٩٩ بسبب نجاحه في الوقوف والصمود

المدينة وبناء أسوار ضخمة حولها في وقت سابق, كان له الفضل الأكبر في صد وردع القوات الفرنسية عن المدينة. بالإضافة للأسوار اهتم الجزار ببناء مرابض للمدفعية وتشييد خندق حول الأسوار بعمق ثمانية أمتار. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد المدافع على أسوار عكا بلغ ما يقارب ٢٥٠ مدفعا, أثناء الحصار الفرنسي, هذا بالإضافة لاهتمام الجزار بجمع كميات كبيرة من الغذاء والقمح والأرز والمؤن وتوفير كميات كافية من المياه في الفترة التي سبقت وصول الجيش الفرنسي إلى عكا, وذلك استعدادا لوقت الحصار.

في ٢٣ مارس ١٧٩٩م, بدأت المعركة على عكا حيث طوق نابليون المدينة وضرب حصارا حولها من كافة الجهات البرية مستعملا أثناء ذلك القصف المدفعي المكثف, خاصة من ناحية الجهة الشرقية والشمالية الشرقية للمدينة, لكن نابليون وجنوه

لقوات الجيش الفرنسي وإيقافه لنابليون بعدم تمكينه من اختراق أسوار عكا ومواصلة زحفه لبقية مناطق الجليل والشام, وذلك بفضل بسالة الجزار ومساعدة الأسطول الإنجليزي له وتقديرا لنجاحه عينه الباب العالي منصب الولاية الرفيع وشملت ولايته معظم فلسطين والشام. وبعد جلاء القوات الفرنسية عن عكا عام ١٧٩٩, اهتم الجزار بالبناء والعمران وتوطيد سلطانه وحكمه, فاهتم بتشييد الأسوار حول عكا وبناء الكثير من المباني العامة والتي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا, لعل أهمها: جامع الأنوار (الجزار), خان العمدان, الأسوار, الحمام وغيرها. وتوفي أحمد الجزار عام ١٨٠٤[1], وكان موته طبيعيا مما يعتبر بمثابة ظاهرة شاذة في تاريخ الولاة العثمانيين في أيامه.

فشلوا في اختراق أسوار المدينة المنيعة وبطولة أحمد الجزار المستميتة بالدفاع عن عكا وصد العدوان كان له الأثر المعنوي الكبير على حامية وسكان المدينة بالتصدي للقوات الفرنسية.

وعندما لم تنجح محاولات نابليون باختراق أسوار عكا أصدر أوامره لجيشه بالاستمرار بحصار المدينة والحيلولة دون وصول مساعدة خارجية للجزار. وخلال حصار عكا نجح جنود نابليون بالاشتباك والحاق هزيمة بقوات الجيش العثماني القادمة من دمشق بمعركة قرب طبريا, وكانت تلك القوات قادمة لمساعدة ومناصرة الجزار. وفي هذه الفترة القصيرة تمكنت القوات الفرنسية من احتلال طبريا والناصرة وصفد, وخلال فترة حصار عكا التي استغرقت أكثر من ٦٠ يوما, استطاع الفرنسيون من السيطرة وبسط نفوذهم على منطقة الجليل الغربي والتي امتدت من حيفا جنوبا وحتى مدينة صور شمالا, ومن البحر حتى شفاعمرو شرقا. وبعد معركة جبل تابور في ١٧٩٩/٤/١٦م, امتدت منطقة نفوذ الجيش الفرنسي لتشمل بقية مناطق الجليل ومرج ابن عامر.

كان ميناء الطنطورة الميناء الوحيد على الساحل الفلسطيني الشمالي الذي خضع لاحتلال الفرنسيين والذي خدم الجنود الفرنسيين لمغادرة سفنهم ليافا ولاستقبال العتاد والمؤن

والمحافظة على اتصالهم بيافا وغزة. ميناء حيفا كان مغلقا أمام الفرنسيين نتيجة الحصار الذي فرضه الأسطول الانجليزي حوله, وميناء عكا كان تحت سيطرة قوات الجزار والأسطول الانجليزي بقيادة الجنرال سيدني سميث (Sidny Smith), الذي ساعد الجزار بتصديه بنابليون وبالدفاع عن عكا.

وخلال حصار نابليون لعكا, استعمل واستغل دير الرهبان الكرمليين على جبل الكرمل, كمستشفى لمداواة ومعالجة الجرحى والمرضى الفرنسيين, في حين تمت معالجة المرضى والجرحى من الجنود الفرنسيين المحاصرين لعكا في شفاعمرو, حيث تم تحويل قلعة سرايا ظاهر العمر إلى مستشفى عسكري لخدمة الجنود الفرنسيين.

وبعد حصار دام ٦٢ يوما حول عكا, من١٨/٣ - ١٧٩٩/٥/٢١م, وبعدما فشل نابليون وجيشه ومدافعه باختراق أسوار المدينة المنيعة والدفاع البطولي لأحمد باشا الجزار عن عكا بمساعدة الأسطول الانجليزي, وبعدما رفض الأمير بشير الشهابي الثاني (لبنان) في الانضمام لنابليون والتحالف مع الفرنسيين ضد الجزار والعثمانيين, وبعدما باءت بالفشل محاولات وخطط الجنرال لويس كافرلي, المهندس الرئيسي لجيش نابليون المحاصر لعكا,

لاختراق أسوار المدينة ولتفشي الأمراض خاصة الطاعون في صفوف الجنود الفرنسيين وقلة العتاد والمؤن والخسائر البشرية والمادية الفادحة التي تكبدها الجيش الفرنسي خلال فترة حصاره لعكا. قرر نابليون في ٢٠ أيار سنة ١٧٩٩ فك الحصار عن عكا وأمر جنوده برمي ما بقي معهم من قذائف على المدينة وأبنيتها, لا سيما قصر الجزار والمنطقة المحيطة به, مما ألحق دمارا كبيرا في أبنية المدينة, وبعد أن فك الجنود الفرنسيون مقر قيادتهم ومعسكرهم من تل الفخار, عادوا أدراجهم لمصر, حتى دون أن يشعر بذلك المدافعون عن عكا, وبعد أن ألقى الجنود الفرنسيين بمدافعهم الثقيلة وعتادهم وأسلحتهم للبحر تاركين عكا وعلامات الفشل والإرهاق والخسارة تلاحقهم. ومهما يكن من أمر فيمكننا استنتاج عجز وفشل نابليون بونابرت في احتلال عكا لسببين رئيسيين, الأول: أسوار المدينة المنيعة وتحصيناتها, والثاني: مساعدة الأسطول الانجليزي بالعتاد والأسلحة للجزار.

لقد كان لذلك أكبر الأثر في رفع معنويات الجزار بتصديه للقوات الغازية . وبفشل نابليون في كسر شوكة الجزار واختراق أسوار عكا, تلاشت وتحطمت أحلامه في احتلال اسطنبول والقضاء على دولة الخلافة العثمانية ولتبقى مقولته المشهورة

مدونة على صفحات التاريخ: "لقد أنستني عكا عظمتي, لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم, فقد كان حظ الشرق محصورا في هذه المدينة الصغيرة".

وفي طريق عودتهم نحو مصر, دمر الجنود الفرنسيون تحصينات الساحل وأبادوا الحقول المزروعة وتكبدوا الكثير من الخسائر في الأرواح, خلال اشتباكهم مع أبناء العشائر والقبائل البدوية وسكان نابلس الذين تعرضوا لهم بطريق عودتهم,هذا فضلا عن موت ومقتل أكثر من ثلث أفراد الجيش الفرنسي خلال الحصار حول عكا. ولا تزال حتى يومنا هذا لوحات القبور والمدافن على جبل الكرمل تحمل أسماء الضحايا الفرنسيين الذين لاقوا حتفهم بفترة الغزو الفرنسي على فلسطين.

وفي ٢٢ آب عام ١٧٩٩, غادر نابليون ميناء الإسكندرية سرا إلى فرنسا, بعد أن ترك قيادة "جيش الشرق" وإدارة الأمور في مصر بأيدي الجنرال كليبر وبقية الجيش الفرنسي المنهار والضعيف الفاقد الأمل بالعودة حتى إلى فرنسا.وفي ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٠٠ وقع كليبر على اتفاقية العريش مع العثمانيين, التي نصت على جلاء القوات الفرنسية عن مصر. وبعد بضعة أشهر من الاتفاق قتل كليبر وخلفه على قيادة الجيش الجنرال مينو, الذي هزمه

الإنجليز في معركة بالقرب من الإسكندرية في ٢١ آذار عام ١٨٠١. وفي أعقاب هذه الهزيمة تم جلاء وعودة القوات الفرنسية عن مصر إلى فرنسا، ورجعت ولاية مصر لنفوذ السلطان العثماني وفقا لصلح أميان المبرم بين بريطانيا وفرنسا. وفي أيلول سنة ١٨٠١, غادر آخر جندي فرنسي أرض مصر لتنتهي فترة تاريخية ذات تأثير بعيد الأمد على العلاقات بين الشرق والغرب. عرفت بفترة الحملة الفرنسية على مصر.

بعض نتائج الحملة وتقييمها:

(١) تعتبر حملة نابليون بداية النهاية لنفوذ المماليك في مصر ونشوء ما عرف لاحقا بالمسألة المصرية.

(٢) تعتبر الحملة بداية التدخل الأوروبي في شؤون دولة الخلافة العثمانية والولايات العربية التابعة لها بشكل مباشر، وهذا ما تذكره كتب التاريخ وتعرفه بالمسألة الشرقية (The Eastern Question).

(٣) حملة نابليون على مصر كانت أول حملة أوروبية مسلحة على الشرق الأوسط منذ الحروب الصليبية ,

(٤) تعد حملة نابليون بداية التدخل الأجنبي المباشر في الشؤون الداخلية لولايات وشعوب المنطقة.

(٥) انكسار الجيش الفرنسي في مصر برهن على أن اقتسام إرث دولة الخلافة العثمانية لن يتم لدولة أوروبية واحدة ولا تستطيع فرنسا بمفردها, أو بريطانيا لوحدها تحقيق ذلك دون التحالف مع بقية الدول الأوروبية.

(٦) القضاء على مطامع نابليون بونابرت الشخصية, بالسيطرة على الشرق والطريق التجارية للهند واحتلال أوروبا الشرقية,

(٧) نجاح الجزار رفع من منزلته عند السلطان العثماني وفي أعين السكان المحليين , وبعد الحملة الفرنسية, أصبح الجزار الحاكم المطلق والأقوى ليس في عكا فقط, وإنما في الجليل وجزء كبير من بلاد الشام, لذا تراه يرقى تقديرا لانتصاراته ومساعدته للسلطنة العثمانية, من قبل الباب العالي العثماني لباشا على دمشق, بالإضافة لحكمه على صيدا وطرابلس، والجليل وأصبحت عاصمته الرسمية مدينة عكا ، ولعلها الفترة الذهبية لهذه المدينة في تاريخها.

(٨) أصبحت فلسطين وعكا محط أنظار أوروبا .

(٩) انضمت دولة الخلافة العثمانية إلى بريطانيا وروسيا والنمسا ضد فرنسا بعد أن كانت تركيا من أقوى أصدقاء فرنسا قبل الحملة.

(١٠) أظهرت الأعمال البربرية والقتل والإعدام الجماعي للأسرى والجنود والمدنيين التي قام بها نابليون وجنوده في مصر وفلسطين فضحت نوايا فرنسا الاستعمارية, التي كانت تتستر عليها بستار مساعدة الأقليات والشعوب المضطهدة حسبما وردت في نتائج الثورة الفرنسية والتغييرات الاجتماعية والدستورية والسياسية التي حققتها حين اندلاعها.

(١١) عندما غزا نابليون مصر (١٧٩٨م) واستقر الفرنسيون في القاهرة والاسكندرية, أصبح تهديد نابليون للهند أعظم شغل شاغل للسياسة البريطانية. وبمغادرة نابليون لمصر سرا في آب عام ١٧٩٩م وحتى مغادرة آخر جندي فرنسي مصر في آب ١٨٠١, زال عمليا تهديد نابليون للقضاء على الحكم البريطاني في الهند وانتهى أمره. بعدها أضعفت الحملة الفرنسية من قوة ونفوذ المماليك في مصر.

(١٢) بـزوغ نجـم محمـد علـي باشـا بعـد جـلاء الفرنـسيين وإقامـته لـولاية ودولة مستقلة في مصر ، حتى أصبح مؤسس مصر الحديثة (١٨٠٥-١٨٤٩م).

(١٣) القـضاء علـى الأسـطول الفرنـسي وخفـض مكانـة فرنـسا كدولـة بحـرية في أعين الدول الأوروبية , وبالمقابل ارتفاع مكانـة بـريطانيا كدولـة بحـرية عظمـى لـنجاح أسـطولها في القضاء على الأسطول الفرنسي .

(١٤) إظهـار مـدى الـضعف والتفكك الإداري والعسـكري للـسلطنة العثمانـية في إسـطنبول ، وعـدم قدرة الدولة الدفاع عن أراضيها وممتلكاتها بقواها الذاتية , إلا بمساعدة دول أجنبية .

حقيقة المطبعة الفرنسية :

في يولـيو مـن عـام (١٩٩٨م) وعلـى مـدى عامين اثنين احتفل مجمـوعة مـن المـثقفين المـصريين بمناسـبة مـرور مـائتي عـام على الحملـة الفرنسية التي قادها (نابليون بونابرت) على مصر، وزعموا أنهـم لا يحـتفلون بالاستعمار، وإنما بالعلاقات الثقافية مع فرنسا، وبالمجمـع العلمـي والمطـبعة التي أدخلها نابليون لأول مرة إلى مصر. ولا نـستغرب أن بعـض نـصارى العـرب مـثل ألـبرت حوراني يـؤرخ لبداية الحداثة العربية بحملة نابليون، لكن الغرابة أن يتبنى هذه

الرؤية أيضا بعض المثقفين المصريين المنتسبين إلى الإسلام، ويعيدون اجترار الفكر الاستعماري، ويصفقون بكل انهزام لتاريخه وثقافته..!

الجدير بالتأمل أن نابليون عندما دخل إلى مصر تلبّس بلباس المسلمين، وزعم أنه يريد تحرير حقوق المصريين من الظالمين وقال في أول بيان نشره: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه)، ثم قال: (يا أيها المصريون! قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم؛ فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله - سبحانه وتعالى - وأحترم نبيه والقرآن العظيم!)(٥).

سرد عبد الرحمن الجبرتي، أحداث الحملة الفرنسية لمصر بمؤلفه وكتابه القيم "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" الوقائع التفصيلية لبداية الاحتلال الفرنسي للاسكندرية والقاهرة، والمنشور الذي وزعه نابليون على السكان المحليين كتب وطبع باللغة العربية، يشرح فيه أسباب قدومه لمصر، وكأن هدفه ليس

---

(٥) تاريخ الجبرتي، أحداث سنة (١٢١٣هـ). ولاحظ أن هذا الشعار لا يبعد كثيرا عن شعار (تحرير العراق) الذي رفعه الأمريكيون لتسويغ حملتهم الجائرة على العراق..!

احتلال مصر أو مقاومة السلطان العثماني وانما العكس تماما, مساعدة السلطان وأهل مصر من جور وظلم المماليك, بالرغم من أن الجبرتي كان معاديا للغزو الفرنسي وبرز ذلك بأسلوب كتابته الناقد واللاذع للجيش الفرنسي وقائده, إلا أن كتابه يعتبر وبحق المرجع التاريخي الرئيسي والأولي لوصف أحداث هذه الحقبة التاريخية المهمة في تاريخ مصر.

ولقد استقر في وعي الناشئة أن العرب عرفوا المطبعة بفضل الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م)، وهذه المطبعة من أفضال الحملة الفرنسية على الشرق ، وهذا كلام خال من الصحة ، بل ربما أثبت التاريخ أمرا في غاية الخطورة .

إن أول مطبعة عرفها الشرق هي التي أنشأها الشماس عبدالله الزاخر ،الذي ما زالت جمجمته معروضة في غرفة خاصة بدير الخنشارة في لبنان إلى جانب حروف الطباعة و المطبعة التي استعملها .

وكان عبد الله الزاخر قد جاء من حلب عام ١٧٢٢ م لينشئ هذه المطبعة في جبل لبنان في دير يوحنا الصايغ في الخنشارة عام ١٧٣٢ م .

وكانت أول مطبعة في الشرق أنشأها البطريرك أثناسيوس الرابع دباس حوالي عام ١٧٠٥م في حلب بعد أن كلف الشماس عبد الله الزاخر بذلك.

و كان أول كتاب خرج من هذه المطبعة على يد الشماس عام ١٧٠٦ م وهو كتاب المزامير (أي أن مطبعة حلب قد سبقت مطبعة نابليون التي جاءت مع المدافع (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) بحوالي قرن كامل من الزمن) .

هل فك علماء الحملة الفرنسية رموز اللغة الهيروغليفية بواسطة العالم شامبليون ؟

أما حكاية فك رموز اللغة الهيروغليفية على يد شامبليون فهو أمر بحاجة إلى إعادة نظر أيضا .

فقد توصل الباحث المصري د.عكاشة الدالي،من المعهد الأركيولوجي في جامعة لندن، إلى براهين تفيد أن عالما مسلما عاش في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين هو الذي فك شيفرة "حجر رشيد" الشهير،وليس سنة ١٨٢٢م على يد الباحث الفرنسي في اللغات القديمة فرانسوا شامبليون))

((يقول د.عكاشة الدالي إن أول من فك ألغاز الحجر كان أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية: "طيلة أكثر من قرنين ونصف

القرن، ظلت دراسة مصر القديمة خاضعة للرأي الغربي الذي يتجاهل الأبحاث العربية تماما. ولقد شعرت بأن هذا الأمر غير منصف"، يقول الدالي الذي صرف سبع سنوات في مطاردة المخطوطات العربية والتنقيب في بطون الكتب القديمة، حتى عثر على عمل إبن وحشية، فأدرك بصفة قاطعة أن ذلك العالم كان يفهم تماما ما تقوله النصوص الهيروغليفية!

كما توصل الباحث السوري يحيى مير علم إلى ما توصل إليه عكاشة الدالى المصرى من أن العالم العربى أبو بكر أحمد بن على قيس بن المختار المعروف بابن وحشية النبطى الذى يرجح العلماء ولادته فى القرن الرابع الهجرى تمكن من فك رموز الهيروغليفية قبل شامبليون بنحو ألف عام، وأنه نشر كشفه التاريخى فى كتاب تم نسخه عام ٢٤١ هجرية (٨٦١ ميلادية) بعنوان "شوق المستهام فى معرفة زموز الأقلام".

وأن المستشرق النمساوى جوزيف همر كان أول من كشف عن "شوق المستهام" وقام بطبعه فى لندن عام ١٨٠٦م مما يرجح ان شامبليون قد قرأ مخطوطة العالم العراقى ابن وحشية النبطى الذى كان خبيرا فى اللغات))

إن "كتاب شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" قد ترجم إلى الإنجليزية سنة ١٨٠٦م ،أي قبل ١٦ سنة من نجاح شامبليون في قراءة حجر رشيد،الأمر الذي يرجح أن يكون الأخير قد قرأ الكتاب،وأن مقاربة ابن وحشية (في اعتبار الحروف جزءا من أبجدية صوتية وليست مجرد رموز تصويرية) قد تكون وراء النقلة الحاسمة التي جعلته يتخلى نهائيا عن الفرضيات الغربية الراسخة آنذاك.هكذا يقول المنطق البسيط .

وإن كنا لا نستطيع الجزم حول ما إذا كان شامبليون قد قرأ كتاب إبن وحشية أم لا. لكن مناقشة هذا الافتراض تعني،في جانب آخر،إحقاق حق العالم العراقي العتيق في بعض المجد التليد الذي ينعم به العالم الفرنسي الحديث.

الاستدمار الفرنسي لدول المغرب العربي:

أولا: الجزائر:

أرادت الحكومة الفرنسية في عهد الملك «شارل العاشر» أن تصرف شعب «فرنسا» عن الثورة، وأن تشغله عن المشاكل الداخلية بالدخول في مغامرات خارجية تحقق بها أمجادا وانتصارات ترضيه بها، وكانت الجزائر في ذلك الوقت دولة لها

ديـون عـلـى «فرنسا»، والتي اتخذت من قصـة المذبة المشهورة ذريعة لاحتلال «الجزائر» في يوليو سنة (١٢٤٦هـ= ١٨٣٠م).

ولكـن «الجزائـر» لم تهـدأ فقـامت المقـاومـة بقيـادة الأمير «عـبد القـادر الجـزائـري» الـذي أعـلـن قـيـام إمـارة مستقـلـة في جـنوب «الجزائـر»، ولكـن «فرنـسا» بعد عقدها معاهدة مع الأمير نقـضت بـنودها، وتـشددت فـي قـتاله حتـى استولت عـلـى أغـلـب مدن «الجزائر» فـالتجـأ الأمير «عبدالقادر» إلى «مراكش»، ولكـن «فرنـسا» أنـذرت سـلطان «مـراكش» بعدم قبول الالتجـاء، فسـلم «عـبد القـادر» نفـسه إليهم، حيث نفى إلى «دمشق» ليقضى بقية حياته بالشام.

ثانيا : احتلال «تونس»:

أراد حـكـام «تونس» إدخال المدنية الغربية إلى بلادهم، ومن أجل ذلك قـبـلوا الاستدانـة من دول «أوربـا»، ممـا أوجد في النهـايـة الفرصـة للتدخل الأجنبي في شئون «تونس».

وكـانـت «فرنـسـا» هـي المعنـيـة بالدرجـة الأولى بأمـر «تـونس»، ولكـي تـبرر تـدخـلـها السـافر في أمر «تونس»، ادعت قيـام إحدى القبـائـل التـونسيـة بـالاعتداء عـلـى عمـال فرنسيين،

فدخلت قوات «فرنسا» «تونس» وحاصرت العاصمة وأجبرت الباي على توقيع «اتفاقية تاردو» سنة (١٢٩٩هـ- ١٨٨١م)، والتي يعترف فيها بالحماية الفرنسية على «تونس»، وبحق «فرنسا» في إبقاء قواتها في الأراضي التونسية بالإضافة إلى رعاية «فرنسا» لمصالح «تونس» في الخارج، أي قبوله احتلال «فرنسا» لتونس.

ولكن الشعب التونسي رفض قبول هذه الاتفاقية وثار عليها، ولكن القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الأسلحة أخمدت هذه الثورة بكل عنف سنة (١٣٠١هـ- ١٨٨٣م) وقيدت الباي بمعاهدة جديدة استكملت بها احتلال «تونس».

ثالثا : احتلال "مراكش":

أرادت «فرنسا» أن تكون «مراكش» مكملة لمستعمراتها في «المغرب العربي»، فدخلت في صراع مع عدد من دول "أوربا"، فإسبانيا ترى فيها مجالا حيويا لتمد سلطانها إلى الجنوب، و«إنجلترا» تريد السيطرة على «مضيق جبل طارق»، و«ألمانيا» التي دخلت حلبة الصراع الاستعماري متأخرة تريد أن تكون «مراكش» مستعمرة لها، ولكن «إنجلترا» التي

خشيت من تزايد قوة البحرية الألمانية عقدت مع «فرنسا» ما عرف بالاتفاق الودي (١٣٢٢هـ= ١٩٠٤م) والذي أنهى النزاع حول «مراكش»، فقد أيدت «بريطانيا» احتلال «فرنسا» لمراكش فى مقابل عدم مطالبة «فرنسا» «إنجلترا» بالانسحاب من «مصر»، كما عقدت «فرنسا» معاهدة مع «إسبانيا» اعترفت فيها «إسبانيا» بمركز «فرنسا» فى «مراكش» فى مقابل اعتراف «فرنسا» بمركز «إسبانيا» فى منطقة الريف الساحلية المواجهة لإسبانيا.

ولكن «ألمانيا» رفضت ذلك وساندت السلطان المغربى فى مطالبته باستقلال مدينة «طنجة».

وعقد مؤتمر الجزيرة الذى وقفت فيه «إنجلترا» و«إسبانيا» و«إيطاليا» إلى جانب «فرنسا»، وتقرر فى هذا المؤتمر الاعتراف بالنفوذ الفرنسى والإسبانى فى «مراكش».

وانتظرت «فرنسا» الفرصة لاحتلال «المغرب» وواتتها الفرصة سنة (١٣٣٠هـ= ١٩١١م) عندما ثارت القبائل على السلطان «عبد الحفيظ» الذى استنجد بفرنسا التى سارعت إلى نجدته ودخلت قواتها مدينة «فاس» فى (ربيع ١٣٣٠هـ= مارس ١٩١١م)، ثم عقدت معاهدة الحماية مع السلطان «عبد الحفيظ»

سنة (١٣٣١هـ = ١٩١٢م)، كما تمت التسوية بين «فرنسا» و«إسبانيا» فى (نوفمبر ١٩١٢م) وحددت مناطق نفوذ كل منهما، واتفق على أن يعين السلطان خليفة له فى منطقة الريف التى تخضع للنفوذ الإسبانى، وبذلك دخل «المغرب» تحت الاحتلال الفرنسى من ناحية، والإسبانى من ناحية أخرى.

أولا: جنوب الجزيرة العربية:

في سنة (١٢١٤هـ= ١٧٩٩م) احتلت «بريطانيا» «بريم»، وعين أول مندوب بريطاني في "اليمن" سنة (١٢١٦هـ = ١٨٠١م) ، ثم أنشأ الإنجليز مستودعا للفحم سنة (١٢٤٥هـ= ١٨٢٩م) ، ثم عرضت «إنجلترا» على السلطان العثماني أن تشتري مرفأ «عدن»، ولكنه رفض، فاستولت عليه بالقوة في (١٢٥٥هـ=١٨٣٩م).

لقد استولت بريطانيا على جزيرة بريم عند مدخل مضيق باب المندب في عام ١٧٩٩م ، لتأمين المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، ثم أرسلت حملة عسكرية من الهند عبر البحر الأحمر شاركت في إخراج الفرنسيين من مصر.

وعلى الرغم من انسحاب بريطانيا من جزيرة بريم بعد إجلاء الفرنسيين عن مصر فإن اهتمامها بالسيطرة على باب المندب ظل قائما ، لذلك قررت بريطانيا الاستيلاء على عدن لتحقيق مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية في المحيط الهندي ومنطقة البحر الأحمر ، مستغلة في ذلك جنوح السفينة الهندية دوريا دولت ، التي كانت ترفع العلم البريطاني بالقرب من ساحل عدن ، وقيام الأعراب بنهب

محتوياته، وهب سكان عدن للدفاع عن مدينتهم ضد الغزو البريطاني في يناير ١٨٣٩م، فوقعت المذبحة الأولى لليمنيين الأبرياء؛ غير أن اليمنيين في جنوب اليمن لم يخضعوا للاحتلال البريطاني، فارتكب البريطانيون أربع مذابح أخرى، ثم أقاموا المذابح في شمال اليمن.

وبعد افتتاح «قناة السويس» سنة (١٢٨٦هـ= ١٨٦٩م) امتد نفوذ «بريطانيا» إلى «حضرموت»، واخترعت نوعًا جديدًا للسيطرة الاستدمارية وهو فرض الحماية على كل زعماء ومشايخ المنطقة كل على حدة.

ثانيا: إقليم وادي النيل:

أراد «إسماعيل باشا» والي «مصر» أن يتشبه بالمدنية الأوربية، وأن يجعل «مصر» قطعة من «أوربا»، وعمل على أن تكون له إمبراطورية إفريقية امتدت جنوبًا إلى "خط الاستواء"؛ حيث ضمت «دارفور» ومنابع «نهر النيل»، كما ضمت «إريتريا» و«هرر» و«الصومال» في شرق «إفريقيا»، ولكنه مع ذلك أغرق نفسه في الديون التي شجعته عليها دول «أوربا» حتى وقع في أزمة مالية، فانتهزت «إنجلترا» الفرصة للتدخل في شئون «مصر» ماليا، فجاءت البعثات الغربية للمحافظة على أموال

الدائـــنين، ثــم أنــشئ صــندوق الــدّيْن للحد من حريــة تصرف الدولة المــصريــة فـــي الإدارة والحكم، وكــان هذا التدخـل السيــاسي تــمهــيدا للــتــدخــل العــسكــري مــن جــانب «إنجــلــترا» في عهد الخديــوي «توفيق»، الذي تولى بعد عزل الخديوي «إسماعيل».

ولمــا قــامــت الــثورة العــرابيــة بقــيــادة «أحمــد عرابــي» مطــالبــة بحــق المصريين في قيادة الجيش ومناصب الدولة العليا، أذعــن الخديــوي لــبعض مطــالــبهــا ثــم تــشكــلت وزارة بــرئــاســة «محمــود ســامي الــبارودي» تــولى «عرابــي» فــيها نظــارة الحــربية، ولكن «إنجلترا» و«فرنسا» أخذتا في تصعيد الأزمــة بين الخديــوي ووزارة «الــبارودي»، ثــم تطــور الأمــر فأرسلت «إنجــلترا» و«فرنســا» أســـاطيــلهــا إلى مــيــاه «الإســكندرية» وطالبــتا ـ في مذكــرة مشتركة ـ الحكومة المصرية بإبعاد زعماء الحركة العرابية عن «مــصر» وإقــالــة حكــومة «البارودي»، فرفض الوزراء والشعب هذه المذكــرة، ولكن الخديوي قبــلهــا، وكــان من الصعب تشكــيل وزارة بــدون «عــرابــي»، الذي أصــبح ينــال تــأييد كــلٍّ من الجيش والــشعب، ولكن «إنجــلترا» التي كــانت مصممــة عــلى احتــلال «مــصر» بــدأت أساطيلها في ضــرب «الإســكندريــة» يوم (١١ من يــوليو ١٨٨٢م) واضطر الجيش المصري إلى إخــلاء المدينــة، ثم تقدمت

القوات الإنجليزية حتى احتلت «القاهرة»، بعد أن هزمت العرابيين في معركة «التل الكبير» في (ذي القعدة ١٣٠٠هـ= سبتمبر ١٨٨٢م).

أسباب مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢م :

(١) حضور الأسطولين الإنجليزي والفرنسي إلى الإسكندرية ، وتمركزهما في مياهها .

(٢) ضيق المصريين بوجود هذين الأسطولين .

(٣) تحريض قنصل إنجلترا في الإسكندرية الرعايا البريطانيين على مواجهة المصريين وإطلاق النار عليهم حماية لأنفسهم من اعتداءات المصريين .

(٤) تواطؤ عمر لطفي محافظ الإسكندرية مع الرعايا البريطانيين الذين أطلقوا النار على المصريين ، وكان ذلك بأمر منه .

(٥) اشتراك شرطة المحافظة في القتل للمصريين وحماية البريطانيين ، وذلك بأمر مباشر من محافظها عمر لطفي .

(٦) استعداد بريطانيا لمواجهة المصريين واحتلال أرضهم .

نشأت الحركة المهدية في «السودان» على يد السيد «محمد احمد المهدى»، الذي نشأ بالقرب من «دنقلة»،وحفظ القرآن الكريم وتعلم الفقه والحديث والتوحيد.

نادى «المهدى» بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، وهاجم الاختلاف فى الشروح والمسائل الفقهية الفرعية.

وكان من أسباب قيام الحركة المهدية إرهاق حكومة «السودان» المواطنين بالضرائب، واحتكارها للمحاصيل والسلع التجارية المهمة، واهمال "السودان" وعدم إرسال الإمدادات إليه أثناء انشغال «مصر» بالحركة "الوهابية"، فاستغل أنصار «المهدى» انشغال العرابيين بالاحتلال الإنجليزى فاستولوا على «كردفان»، فقاد «هكس باشا» حملة مصرية للقضاء على المهديين، ولكن الحملة فشلت وقضى المهديون عليها، فطلب الإنجليز من الحكومة المصرية سحب قواتها من «السودان»، ولكن «شريف باشا» رئيس "الوزارة" رفض وقدم استقالته احتجاجا على السياسة البريطانية، وخلفه «نوبار باشا» الذي استجاب وسحب الجيش المصري من «السودان».

ثم عهد الإنجليز إلى «غوردون باشا» بأمر الانسحاب فاستهان بأمر «المهدى» وحركته، فزحف «المهدى» إليه وحاصره في «الخرطوم» وقتلوا «غوردون باشا»، مما كان له أثر كبير في انتشار المهدية في ربوع «السودان».

ثم توفي «المهدي» في سنة (١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م) وخلفه «عبدالله التعايشي» الذي لم يكن على مستوى «المهدى» ونفوذه، فحاول غزو «مصر» ولكنه فشل ثم أرسل الإنجليز حملة كبيرة بقيادة «كتشنر» تمكنت من هزيمة المهدية والقضاء على حركتهم واحتلال «السودان».

إنه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانت دولة وادي النيل أحد الأهداف الرئيسة لبريطانيا التي استغلت ضعف الحكومة المصرية وفتح الباب للتدخل الأجنبي، وسعت إلى تنفيذ خطتها بالاستيلاء على مصر أولا ثم السودان ثانيا .

ففي مصر وقعت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونية ١٨٨٢م ثم ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢ م الذي يمثل المذبحة الثانية، واحتلت بريطانيا مصر في سبتمبر ١٨٨٢م، وأخذت ترسخ أقدامها فيها .

وفي النصف الأول من سنة ١٩٠٦م تصاعد التوتر السياسي بين الجانبين المصري والبريطاني ، فوقع حادث دنشواي في ١٣ يونية ١٩٠٦م الذي أفضى إلى مذبحة دنشواي .

وفي أواخر ١٩٤١م ويناير عام ١٩٤٢م تفاقمت الأوضاع الاقتصادية والسياسية في مصر ، ونشط المعسكر الموالي للمحور ضد بريطانيا ، كما ساء الموقف العسكري البريطاني في جبهة شمال أفريقيا ، ولضبط الشعور المعادي للبريطانيين ، والمؤيد للمحور أجبر السفير البريطاني بقوة السلاح الملك فاروق يوم ٤ فبراير ١٩٤٢م على استدعاء مصطفى النحاس وتكليفه بتأليف الوزارة ، ووقف الشعب والجيش موقفا سلبيا من ذبح الكرامة المصرية يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ م .

وفي ٨ أكتوبر ١٩٥١ م ألغى مصطفى النحاس معاهدة أغسطس ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا ، ثم اشتدت حركة المقاومة المسلحة في منطقة القناة ، وحدثت معارك بين المصريين والقوات البريطانية ، بلغت الذروة في مذبحة الإسماعيلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢ م .

أما في السودان فقد استغلت بريطانيا إخفاق الثورة العرابية ، وسيطرتها على مصر ، وعمدت إلى تصفية دولة وادي النيل بالاستيلاء على السودان .

وفي ٢٩ فبراير ١٨٨٤م كانت المذبحة البريطانية الأولى على يد الجنرال جراهام . ثم اسنغلت بريطانيا الفراغ الذي أحدثه انهيار الإمبراطورية المصرية الأفريقية ، وعجز المهدية عن ملأ الفراغ ، واستولت قواتها على السودان (١٨٩٦/١٨٩٩م) ، واقترفت المذبحة الثانية في سبتمبر ١٨٩٨ م .

وطبقا لاتفاقية سايكس بيكو في ربيع سنة ١٩١٦م تم اقتسام دول المشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا .

وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ م صدر التصريح المعروف بوعد بلفور ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وضعت فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني .

وفي فلسطين تمالأت بريطانيا مع الصهيونية ومكنتها من إقامة دولة (إسرائيل) ذابحة بذلك الوطن والشعب الفلسطيني .

وفي العراق نفذت بريطانيا مذبحتين للثوار في الربع الأول من القرن العشرين .

وها هي ذي تشارك الولايات المتحدة الأمريكية في ذبح العراقيين في القرن الواحد والعشرين .

وسنقف - بعد قليل - بشيء من التفصيل مع بعض هذه المذابح البشعة التي ارتكبت في حق الإنسانية ، لنبين مدى الاستدمار والوحشية التي عانت منها دول الشرق الإسلامي الحديث على يد دعاة الديمقراطية والحرية والعدل .

مذبحة دنشواي :

وقع حادث دنشواي كما ترويه الروايتين المصرية والإنجليزية بعد جمعهما على النحو التالي :

في يوم ١٣ يونية سنة ١٩٠٦م ، وفي قرية دنشواي إحدى قرى مديرية المنوفية اقترب عدد من الضبطات البريطانيين من أحد الأجران في القرية ، وقاموا بإطلاق النار على الحمام في هذا الجرن ، فنتج عن ذلك اشتعال النار في جرن محمد عبدالنبي (مؤذن مسجد القرية) ، وكان الفلاحون في الحقول المجاورة يرقبون الصيادين في ضيق واستياء ، وعندما اشتعلت النار ، ثاروا وهجموا على الضباط يضربونهم، ويحاولون انتزاع البنادق منهم ، وكان فيهم محمد عبدالنبي وزوجته أم محمد .

وفي غضون ذلك كان شيخ الخفراء والخفراء قد وصلوا إلى مكان الحادث فأسهموا في إطفاء النار ، وحاولوا التفريق بين الضباط والأهالي ، إلا أنهم أخفقوا لشدة ثورة الأهالي ، وكثرة عددهم ، فأدرك الضباط الخطر ، فأطلق بعضهم أعيرة نارية غير مباشرة ، غير أن أعيرة نارية خرجت من بندقية بورتر بسبب تجاذبها بينه وبين الأهالي ، فأصابت أم محمد وشيخ الخفراء وأحد الخفراء وأحد الأهالي .

وقد أدى سقوط الجرحى إلى تفاقم ثورة الأهالي ، لاسيما أنهم آنذاك أن محمد قد قتلت ، فضلا عن سقوط شيخ الخفراء ، فاشتد هجوم الأهالي على الضباط ، وأوسعوهم ضربا بالنبابيت، وقذفا بالطوب ، وطاردوهم على الطريق الزراعي حين اتجهوا بالعربات ، بل وجذبوهم منها ، وأعادوهم إلى الجرن ، ولم يفلح في الفرار سوى بول ، وبوستوك اللذين جريا في اتجاه المعسكر ، ليلقى أحدهما حتفه .

غير أنه بعد أن وصل الضباط إلى الجرن وكفوا أيديهم عن أية مقاومة ، وأصبحوا تحت رحمة الأهالي ، خفت حدة الغضب ، على حين تنبه الخفراء إلى واجبهم فبدأ كبار السن من مشايخ

البلد يسيطرون على الموقف . فابعدوا الأهالي عن الضباط ، وتولوا حمايتهم مع الحمراء

وتحركت احدى الدوريات البريطانية لإنقاذ الضباط ، فوجدت كابتن "بول" وقد أحاط به بعض الأهالي عند سوق سرسنا ، بعد أن رأوه مغشيا عليه ، فنقلوه إلى مبنى صغير في السوق ، وقدموا له الماء . فلما اقتربت الدرورية البريطانية لاذ الناس بالفرار خوفا منهم ، فاعتقد جنود الدورية أن الفارين أصابوا "بول" ، فطاردوهم ، فعثروا على "سيد أحمد" مختبئا في حفرة ، فانهالوا عليه ضربا بالسونكيات وكعوب البنادق حتى هشموا رأسه .

وأحيلت قضية دنشواي إلى المحكمة المخصوصة ، وصدر الحكم في يوم الأربعاء ٢٧ يونية ١٩٠٦ م ، ونفذ في اليوم التالي مباشرة، وكان الحكم على (٢١) متهما ، يتراوح بين الإعدام شنقا والجلد والأشغال الشاقة لمدة تتراوح بين العام والخمسة عشر عاما.

وقد نفذ حكم الإعدام على مرأى ومسمع من أهالي القرية ، ولم يسمح لهم بدفن شهدائهم . ومن الجدير بالذكر أن تقرير الطبيب الشرعي أكد للمحكمة أن الضابط البريطاني مات بضربة الشمس، وليس بلكمات الأهالي ، لكن المحكمة لم

تأخذ برأيه ، كما أنها لم تحقق في قتل الشاب الذي هشم الجنود البريطانيون رأسه دون مبرر .

الاستدمار الإنجليزي للعراق :

بدأت بريطانيا غزو العراق في السادس من نوفمبر سنة ١٩١٤م واستغرق الغزو أكثر من أربع سنوات ، أي بعد إعلان الهدنة في الحرب العالمية الأولى في نوفمبر سنة ١٩١٨م .

ومنذ البداية أعلنت بريطانيا أن قواتها لم تأت فاتحة غازية ، بل محررة ، منقذة ، بيد أن سياسة بريطانيا الفعلية آنذاك كانت ترمي إلى استدمار العراق ، وقد رأى ممثل بريطانيا في العراق أن يحكم العراق حكما مباشرا ، من خلال إدخال النظم والقوانين والمبادئ الإدارية والقضائية الهندية ، وتركيز السلطات الأساسية في يد الحكام السياسيين البريطانيين ومعاونيهم .

أما على المستوى المحلي ، فقد اعتمد على شيوخ القبائل من أجل تحقيق الأمن ، وأتاح لهم الانتفاع بالأراضي الأميرية الواسعة ، ومنحهم الإقطاعيات الكبيرة لتقوية دعائم النظام الإقطاعي في العراق ، ولإغرائهم على الخضوع للنفوذ البريطاني .

أثارت السياسة البريطانية الاستعمارية استياء وتذمر الوطنيين العراقيين المنتمين إلى التيار القومي العربي والتيار

الإسلامي ، وكان التيار الأول يضم الوطنيين الذين اشتركوا في الجمعيات العربية السرية ، وفي نادي المنتدى الأدبي ، وفي حزب العهد ، وكان قسم كبير من هؤلاء الوطنيين في الشام مع الأمير فيصل . أما التيار الثاني وهو التيار الإسلامي فكان يتركز أساسا في النجف وكربلاء ، وكان بحكم الموقع الديني معاديا للبريطانيين ، ومفجرا للثورة عليهم .

وفي سنة ١٩١٨م قامت ثورة النجف ، التي تتلخص في محاولة بعض أهل النجف مقاومة الاحتلال البريطاني ، حيث تمكنوا من قتل القائد البريطاني للنجف ، ويدعى "مارشال" ، فحوصرت البلدة ، وهدم سورها ، واشتد الحصار الاقتصادي على سكانها ، ومنعوا الماء ، والطعام ، حتى قبض على عدد من ثوارها ، وصدر حكم الإعدام فيهم ، ونفذ الحكم أمام أهل النجف في أحد عشر عراقيا ، كما صدرت أحكام عسكرية أخرى بالسجن والنفي لعدد آخر من الثوار .

بريطانيا تشارك أمريكا في ذبح العراق من جديد :

نجحت قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في تحرير الكويت ، في فبراير ١٩٩١م ، من خلال عملية عاصفة الصحراء ، وقد حدد قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ في

أوائل مارس ١٩٩١م التزامات العراق تجاه قوات التحالف ، بالإضافة إلى مهام لجان التفتيش للتخلص مما يمتلكه العراق من أسلحة دمار شامل ، كما نص قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ الصادر في ٥ أبريل ١٩٩١ م على تشكيل قوة لإعادة السيطرة في شمال العراق ، ولوضع نهاية لإجراءات القهر والقمع والاضطهاد التي تعرض لها الأكراد ، وحدد القرار مدة ثلاثة أشهر لإنجاز مهمة القوة .

غير أن قوات التحالف بادرت في أعقاب انتهاء المدة بالإعلان عن تشكيل منطقتي حظر جوي شمال العراق وجنوبه ، بدعوى تأمين الأكراد في الشمال ، والشيعة في الجنوب من عدوان وبطش صدام حسين ، وبالتالي تم تقسيم العراق من الوجهة الأمنية إلى ثلاثة قطاعات ، حتى تفقد القيادة العراقية السيطرة على البلاد .

واستمرت عمليات الحصار من الخارج ، والاستفزاز من الداخل ؛ بغية تمكين المعارضة العراقية من الإطاحة بالنظام ، غير أن ذلك باء بالفشل .

وقد كانت العمليات العسكرية التي نشبت في شمال العراق في نهاية أغسطس ١٩٩٦ م الاختبار الرئيس لفاعلية نظام الحظر .

وشاركت بريطانيا الولايات المتحدة الأمريكية في توجيه ضربات جوية وصاروخية إلى العراق ، وجرى إعلان اتساع منطقة الحظر الجوي في الجنوب ، لتضييق نطاق عمل القوات العراقية .

وفي ديسمبر عام ١٩٩٨ م تعاونت بريطانيا مع الولايات المتحدة الأمريكية في تنظيم حملة عسكرية جديدة ضد العراق تحت اسم (ثعلب الصحراء) دون إخطار مجلس الأمن ، وكانت الأهداف المعلنة للحملة هي إجبار صدام حسين على الالتزام بالقرارات الدولية ، وإضعاف قدرة العراق على تهديد جيرانها

أما الأهداف غير المعلنة فقد تمثلت في تحقيق مكاسب في المنطقة ، وإبراز دور الولايات المتحدة الأمريكية في قيادة النظام العالمي الجديد ومحاولة إسقاط النظام العراقي .

وقد بدأت عملية (ثعلب الصحراء) في منتصف ليلة ١٦، ١٧ ديسمبر ١٩٩٨ م ، واستمرت مدة سبعين ساعة .

وحرصت الولايات المتحدة وبريطانيا على القضاء على قوة العراق التي أعاد بناءها بعد عاصفة الصحراء ، كما قامت بتدمير جميع الأهداف التي فتشتها رجال التفتيش ، والأهداف التي كان هناك خلاف عليها .

وهكذا هاجمت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العراق دون سند قانوني ، وبدون الشرعية الدولية التي سبق أن استندت إليها محدثة خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات والمؤسسات المدنية والهياكل الإنتاجية والبنية الأساسية والمرافق الحيوية ، وملحقة الأضرار بحاضر العراق ومستقبله .

وفي أكتوبر ٢٠٠٢م صعدت الولايات المتحدة الأمريكية أزمة حيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل ، ثم هددت بشن حرب على العراق إذا لم يستجب لقرار مجلس الأمن (استئناف عمل فرق التفتيش والتخلص من أسلحة الدمار الشامل) .

وقد أعلنت بريطانيا تأييدها الصريح للموقف الأمريكي ، وعلى الرغم من استجابة العراق لقرار مجلس الأمن فقد استمرت بريطانيا في التهديد بشن الحرب على العراق متضامنة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقبل أيام قليلة من الموعد الذي حدده مجلس الأمن للعراق لحصر ما لديه من أسلحة دمار شامل وزعت الحكومة البريطانية تقريرا حوى سجلا طويلا من انتهاكات حقوق الإنسان في ظل نظام صدام حسين.

ثم أخذت بريطانيا تحشد بعض قواتها البرية والبحرية والجوية في منطقة الخليج للاشتراك مع القوات الأمريكية لشن

الحـرب علـى العـراق ، ومازالـت مـستمرة في حشد المزيد من القوات علـى الـرغم مـن معارضـة بعـض نـواب حـزب العمـال الحاكـم في بريطانيا ، وعلى الرغم من المظاهرات التي تجوب شوارع لندن رافضة مشاركة بريطانيا في الحرب .

الاستدمار الإيطالى لليبيا

بعد أن أتمت «إيطاليا» وحدتها أخذت تهيئ نفسها لدخول حلبة الاستعمار الأوربى، ولكنها وجدت معظم الأقطار الإفريقية والأسيوية وقعت فريسة فى يد «إنجلترا» أو «فرنسا»، ولكنها رأت أن «ليبيا» التى تقع فى شمال «إفريقيا»، والتابعة للدولة العثمانية من الممكن أن تكون مستعمرة إيطالية، فأخذت الحكومة الإيطالية ترسل الإرساليات المختلفة من مدارس ومستشفيات وبنوك لتقرض الأهالى ثم تستولى على أراضيهم.

ثم لعبت السياسة الاستدمارية دورها فأعلنت «إيطاليا» الحرب على الدولة العثمانية، وقامت باحتلال «ليبيا» سنة (١٣٣٠هـ= ١٩١١م)، لتكون "مستعمرة" لها، ومن أجل صرف نظر السلطان العثمانى عن «ليبيا» قامت «إيطاليا» بمهاجمة ميناء «الدردنيل» وميناء «بيروت» وساحل «اليمن»، وافتعلت ثورة فى منطقة «البلقان» لتجبر السلطان العثمانى على توقيع معاهدة سنة (١٣٣١هـ= ١٩١٢م) والتى اعترف فيها باستعمار «إيطاليا» لليبيا، مقابل اعتراف «إيطاليا» بالسيادة الروحية لتركيا، ولكن الشعب الليبى أخذ يقاوم الاحتلال عن طريق

الزوايا "السنوسية" التى نظمت حركة الجهاد أثناء الحرب العالمية الأولى، وعقدت عدة اتفاقيات حتى #الحرب العالمية الثانية#، حيث نالت «ليبيا» استقلالها.

الحركة السنوسية:

تنتسب هذه الحركة إلى مؤسسها السيد «محمد بن على السنوسى» الذى اتصل بالحركة الوهابية وتأثر بها أثناء قيامه بأداء فريضة الحَج، ثم قام بإنشاء أول زاوية له بالحجاز سنة (١٢٥٣هـ= ١٨٣٧م)، ثم اتجه إلى موطنه الأصلى فى «الجزائر» سنة (١٢٥٦هـ=١٨٤٠م)،ولكنه آثر تركها لوجود الاحتلال الفرنسى بها واتجه إلى «ليبيا»، وهناك التف حوله الأنصار والأتباع واتسعت حركته وانتشرت الزوايا السنوسية فى أنحاء «ليبيا»، وكانت تخضع للزاوية الرئيسية فى واحة «جغبوب» ثم فى «واحة الكفرة».

وقد نادى «السنوسى» بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وتحكيم شرع الله، والعمل على محاربة البدع والمنكرات التى انتشرت فى بعض أنحاء العالم الإسلامى.

كما دعا وتمسك بضرورة الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية على أنها الأمل الباقى لجمع المسلمين وتوحيد

كلمتهم، وقد تصدى السنوسيون بكل قوة للاحتلال الإيطالى، وقادت الزوايا السنوسية حركة الجهاد ضده، وقد أحرز السنوسيون العديد من الانتصارات على القوات الإيطالية.

بناء مصر الحديثة في عهد محمد علي

خرجت الحملة الفرنسية من «مصر» بعد أن قضت على النظام المملوكى والعثمانى الذى كان قائما منذ أوائل القرن (١٠هـ= ١٦م)، فكانت الفرصة مواتية أمام «محمد على باشا» لكى يستفيد من تنازع النفوذين المملوكى والعثمانى فى السيطرة على مقدرات الأمور فى «مصر».

رأى «محمد على» أن الوقت لم يحن ليتقدم لانتزاع السلطة فى «مصر»، فآثر التريث والعمل على التقرب إلى الشعب المصرى، الذى ظهرت فاعليته فى مقاومة الفرنسيين، فاتحد مع «إبراهيم بك» و«البرديسى بك» زعيمى المماليك، وقاموا باحتلال «القاهرة» وطرد الوالى التركى والحامية #العثمانية#، وظل «محمد على» يعمل فى الخفاء ويوطد صلاته بزعماء الشعب، ولكن الأمر لم يستقر للمماليك؛ حيث إنهم عادوا إلى ظلم الشعب وإرهاقه بالضرائب، فثار عليهم الشعب وتحالف معه «محمد على» وقواته التى قامت بمهاجمة المماليك فى كل مكان حتى أرغمهم على الفرار

وترك «القاهرة»، وتسلم «خورشيد باشا» التركى الحكم، وأراد أن يبعد «محمد على» عن «القاهرة»؛ فثار الشعب ضده بقيادة الزعماء والعلماء، الذين اتفقوا على عزله وتولية «محمد باشا».

وقام السيد «عمر مكرم» نقيب الأشراف، والشيخ «الشرقاوى» شيخ «الجامع الأزهر» بإلباسه خلعة الولاية فى (١٤ من صفر ١٢٢٠هـ= ١٣من مايو ١٨٠٥م)، بعد أن اشترطوا عليه أن يحكم بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع الإسلامية، وألا يفرض على الشعب ضرائب جديدة دون أن يرجع إلى زعمائه وعلمائه.

حرص «محمد على» فى أول حكمه على استمالة زعماء الشعب اعترافا بفضلهم وانتظارا للفرصة المواتية للتخلص منهم حتى ينفرد بالحكم، واستطاع فى النهاية القضاء على هذه الزعامات الشعبية والاستبداد بالحكم وتكوين إمبراطورية امتدت من السودان إلى شبه الجزيرة العربية، فبلاد الشام.

الاستدمار الفكرى الأوربى لدول الشرق الاسلامى

الاستدمار الفكري الأوربي لدول الشرق الإسلامي

لقد بحث المستدمرون في جعبتهم بعد محاولاتهم المستمرة للسيطرة على دول الشرق الإسلامي، فاتخذوا في ذلك خطين متوازيين :

الخط الأول :

استخدام أسلوب (فرق تسد)، ففرقوا الأمة الإسلامية شيعا وأحزابا، وساهموا في أن يضرب بعضهم رقاب بعض، فكانت بعض بلاد الشرق الإسلامي فريسة سهلة في حلوقهم.

الخط الثاني :

وهو المعروف بالغزو الفكري، المتمثل في أمور كثيرة - تحاول الصفحات التالية الحديث عن أبرزها.

الأفكار التي حاول الاستدمار الأوربي نشرها :

أدرك الأوربيون أن سلاح الفكر أمضى من سلاح البارود ، فقرروا استخدامه ، وبذلوا لأجله كل ما في وسعهم ، وأوقفوا مؤسسات بأسرها لهذا الغرض .

ولعل من أبرز ما سعوا إلى نشره ما يلي :

(١) نشر الأفكار المنحرفة التي تضرب العقيدة الإسلامية في مقتل .

(٢) نشر العلمانية والسعي من أجل تدعيمها .

(٣) تأصيل فكرة القومية .

(٤) تهيئة دول الشرق الإسلامي لفكرة العولمة .

(٥) الاهتمام بالاستشراق ودراسة دول الشرق الإسلامي بشكل تفصيلي ، ولو أدى ذلك إلى تعلم اللغة العربية ، ونشر التراث الإسلامي وتحقيقه ، وترجمة العلوم الإسلامية إلى لغاتهم، ليدرسوها دراسة متأنية، ثم يضعوا الخطط لمواجهة الإسلام .

وكان من أشد هذه الخطط خطرا : إنشاء المذاهب والمبادئ الهدامة ؛ كالماسونية ، والبهائية ، والقاديانية ، وغيرها ، ثم إشغال المسلمين بها ، وإخراجهم من دينهم بواسطتها ، وإنشاء الأحزاب السياسية المتنافرة ، والتيارات المختلفة المبادئ والاتجاهات ؛ كالقومية، والاشتراكية ، والفلسفة الماركسية الملحدة -الشيوعية- التي تقوم على أساس إنكار كل ما ليس بمحسوس ، وإثارة الفتن الطبقية بين الشعوب .

وقد سلموا زعامتها لأشخاص فارغين ، يوجهون من قبل أعداء الإسلام في الشرق والغرب .

وخيوط المؤامرة التي نسجها أعداء الإسلام ، لغزو المسلمين فكريا يمكن أن تلخص في النقاط التالية :

أولا : أوجد أعداء الإسلام فرقا وجماعات هدامة، انتسبت - زورا وبهتانا - إلى الإسلام ، وكانت تهدف إلى القضاء عليه من الداخل .

ومن هذه الفرق والجماعات الهدامة : القاديانية ، والبهائية ، وغيرهما(٦) .

---

(٦) راجع كتاب : احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام للدكتور سعد الدين السيد صالح ص ٢٥٧ .

وكان الهدف من إيجاد أمثال هذه الفرق والجماعات :

(١) ضرب الإسلام كعقيدة ، وشريعة ، والقضاء عليه ، وتشويه مبادئه في عقول المسلمين .

(٢) إسقاط شريعة الجهاد التي أقضت مضاجع المستعمرين ، وذلك يعتبر ضمانا لاستمرار احتلال أعداء الإسلام لبلدان العالم الإسلامي .

(٣) إشاعة الفرقة الفكرية بين المسلمين ، وشغلهم بالرد على بعضهم ، واستنفاد قوتهم في الجدل والمناقشات .

(٤) نشر العقائد الباطلة بين المسلمين .

ويتضح هذا الهدف ، إذا علم أن هذه الجماعات الهدامة قد تبنت كثيرا من عقائد النصارى ، واليهود ، والماركسيين ، وغيرهم من أعداء الدين ، ثم عملت على بثها بين أبناء المسلمين.

(٥) أن تعمل هذه الفرق ـ وخصوصا البهائية ـ كجناح آخر للحركة الماسونية الصهيونية ، التي تحاول تحقيق السيطرة العالمية لليهود على العالم أجمع(٧) .

(٦) إشاعة نظرية وحدة الأديان(٨) بين أبناء المسلمين .

---

(٧) انظر المرجع السابق نفسه .

(٨) وممن عمل على نشر هذه النظرية : فرقة البهائية ، وغيرها . ونظرية وحدة الأديان من أهم المبادئ التي نادى بها البهائيون .

... إلى آخر الأهداف الكثيرة التي حرص أعداء الإسلام على تطبيقها من خلال تلك الفرق والجماعات الهدامة التي أوجدوها .

وعن بعض هذه الأهداف يحدثنا الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، فيقول: ((جرَّب الغزاة أن ينشروا بين المسلمين عقائد جديدة، تفسر نصوص الإسلام بحسب أهوائهم، وتنادي بالأخوة الإنسانية، دون تفريق بين الأديان القائمة، وتفسر الإسلام بأنه واحد من هذه الأديان المنتشرة في الأرض؛ يدعو إلى المحبة، وإلى التآخي العام بين البشر، مهما كانت مذاهبهم واتجاهاتهم وأعمالهم ومعتقداتهم، ولا يفرض نفسه على الناس فرضا، وما هو بدين قتال وسفك دماء ... - إلى أن قال: - واستأجروا للقيام بتنفيذ هذا المخطط أجراء ضمن صفوف المسلمين، بألوان شتى، وصور مختلفة . وظهر بعض هؤلاء بأثواب قادة سياسيين ، وظهر بعضهم بأثواب مصلحين دينيين، وابتدع بعضهم دينا جديدا دعا إليه ، وجمع فريقا من المرتزقة عليه ؛ فظهرت البهائية في إيران ، وظهرت القاديانية في الهند . وكل منهما متضمن أخلاطه الإعتقادية الملفقة : إلغاء ركن الجهاد في سبيل الله بالقتال ، ودعاء إلى التعايش بمحبة

وإخاء ، وتعاون مع السلطات الكافرة التي تمتص خيرات البلاد . وتنشر مبادئها ، باعتبارها أمة غالبة مستعمرة))(٩) .

ثانيا : أثار أعداء الإسلام النعرات القومية والعرقية ، لتمزيق الوحدة الإسلامية التي تفزع أعداء الإسلام .

والتيارات القومية التي جلبها أعداء الإسلام من ديارهم ، وفوضوا أمر نشرها لنصارى العرب، ثم لأذيالهم ممن دفعهم الإعجاب بأساتذتهم إلى التنكر لدينهم ، خير دليل على سعي أعداء الله لتمزيق وحدة أمتنا الإسلامية .

ويزداد اليقين بصحة المذكور آنفا ، حين سماع تصريحات وزير المستعمرات البريطانية "أورمس غور" ، التي جاء فيها : ((إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره ، وتحاربه . وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك ، بل فرنسا أيضا . ومن دواعي فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت ؛ لقد ذهبت ، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة . إن سياستنا تهدف دائما وأبدا إلى منع الوحدة الإسلامية ، أو التضامن الإسلامي ، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك))(١٠) .

---

(٩)- أجنحة المكر الثلاثة للميداني ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(١٠)- نقل هذه التصريحات : الشيخ محمد الغزالي في كتابه "هموم داعية" ص ٩٤ .

ويـزول العجـب مـن هـذا التـصريح إذا علمنا أنّ القوميّة التي جلـبها أعداء الله إلى بلاد المسلمين ، وفوضوا أمر نشرها إلى نصارى العـرب : كانـت مـن أسباب سقوط دولة الخلافة الإسلاميّة ؛ فحين تلاشـت الـوحدة الإسلاميّة ، وحلت محلها تيارات قوميّة عملت على النخـر في جـسد الأمّـة من الداخل ، تمزّقت أوصال الدولة الإسلاميّة ، لتسقط الخلافة في النهاية(١١) .

ثالـثا : تمجـيد وإحـياء الحـضارات القديمـة ؛ الآشـوريّة ، والفينيقيّة ، والفرعونيّة ، وتسليط الأضواء عليها .

وهـي محاولـة مـن أعداء الإسلام ، كي ينبهر الشباب المسلم بهـذه الحـضارات ، وينـسى حـضارته الإسـلاميّة الأصـيلة ، الـتي قد طمـس الأعـداء عـن الـشباب أخـبارها ، وشـوّهوا حقائقهـا ؛ بحـيث عمـيت عـن الـشباب أنـباؤها ، فلـم يفـتح عينيه إلا على حضارات أعداء الإسلام وأمجادهم .

رابعا : استهدفت المؤامرة على الإسلام أيضا : انبعاث الفكر الصوفي الفلسفيّ ، والفكر الباطني الوثني .

فأعـداء الإسلام قد عرفوا ((أنّ الحصن الحصين في حياة الأمّة الإسـلاميّة ؛ وجـودها ، وقيامها ، وبنائها ، واستمرارها ، هو "الإسلام"

(١١)ـ انظر : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار لأنور الجندي ص ٧٩ـ٨٢ .

بمفهومه الجامع : منهج حياة ، ونظام مجتمع ، القائم على التوحيد الخالص ، الذي لا تشوبه شائبة ، وبمفهوم رسالة الإنسان في الأرض ، لبناء المجتمع الإسلامي ، ومسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي ، وإيمانه بالبعث والجزاء ، وعقيدته الجامعة التي تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والتي تؤمن بأن الأمور كلها بيد الله ، وأنه خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء))(١٢) .

من أجل ذا ، عمد أعداء الإسلام إلى نشر الأفكار الباطنية ، والصوفية من جديد ، لتعمل تلك العقائد المنحرفة على تدمير الإسلام ، وتحطيمه ، وإزالته .

وليس هذا الانحراف في الاعتقاد داخلي المصدر ، بل هو مستمد من مفاهيم الأديان السماوية المحرفة ، والأرضية الوضعية :

فنظريات : "وحدة الوجود" ، و"الحلول" ، و"الاتحاد" ، و"الفناء" ، و"التناسخ" ، و"الإباحية" هي في مجموعها مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلامي الأصيل ، ومستمدة من الفكر الفلسفي اليهودي ، والنصراني ، واليوناني ، والمجوسي ، والبوذي ، والهندوسي

---

(١٢)- المرجع السابق ص ٦٥ .

وغـرض أعـداء الإسلام من نشر هذه النظريات الإلحادية بين المسلمين : زلزلة مفهوم التوحيد الأصيل ، وإيجاد جو من الشك والريب في قلوب المؤمنين ؛ لزحزحتهم عن أصول عقيدتهم السمحة القرآنية الربانية ، القائمة على الفطرة السليمة ، البعيدة عن التعقيدات والتناقضات(١٣) .

فأعداء الإسلام حاولوا أن يطبقوا مفاهيم الأديان الأخرى عليه ، وتناسوا أن الإسلام يختلف عن هذه العقائد التي قد أصابها التحريف ، أو وضعها البشر لأنفسهم ؛ إذ التوحيد في الإسلام هو الأساس الأول لهذا الدين ، وهو - أيضا - المحرك الرئيس لكل ما يصدر عنه من معتقدات ، وشرائع ، وأفكار(١٤) .

خامسا : نشر الكثير من الأفكار المشوهة عن الإسلام ، وتاريخ المسلمين ، وإثارة الشبهات حول عقائد الإسلام ، وشرائعه ، ونظمه ، وتزييف الحقائق الدامغة التي انطلق منها هذا الدين .

وهذه المؤامرة من آثار دسائس المبشرين ، والمستشرقين ، والمستعمرين ضد الإسلام ، ومن ورائهم كيد يهودي يعمل في

---

(١٣) انظر المؤامرة على الإسلام لأنور الجندي ص ٤٦ .
(١٤) انظر الإسلام والدعوات الهدامة لأنور الجندي ص ٢٧٣ .

الخفاء لمصلحة نفسه ، ويستغل جهود كل مفسد : يتسمى باسم الماسونية تارة ، وباسم الصهيونية أخرى .

ومع هؤلاء في الغزو الفكري للمسلمين : الشيوعيون ، والمنافقون ، والملحدون ، وسائر الكفرة بالله واليوم الآخر .

وقد وفد بعض هؤلاء إلى بعض ديار المسلمين ، وفي حقائبهم تعليمات مكتوبة ، وغير مكتوبة ، تحملهم مهمات متعددة ، من أخطرها : هدم الإسلام في عقائده ، وعباداته ، ونظمه ، وأخلاقه(١٥) .

وعن هذه المؤامرة يحدثنا الأستاذ أنور الجندي ، فيقول : ((لقد عمد الاستشراق ، وواجهته التبشير بطرح عشرات من الشبهات في مختلف مجالات الفكر الإسلامي ، في محاولة خطيرة ماكرة ، ترمي إلى تغيير مفهوم الإسلام الأصيل ، وتزييف قيمه الأساسية ، وإثارة الشبهات ..))(١٦) .. إلى ان قال: ((فالدارس لأعمال المستشرقين لا يحتاج إلى بذل جهد كبير ليرى تعمدهم تزييف الحقائق ، واللجوء إلى منطق فاسد للوصول إلى نتائج تهدف في النهاية إلى رسم صورة مشوهة سقيمة عن الإسلام في نظر

---

(١٥)ـ انظر أجنحة المكر الثلاثة للميداني ص ٣٧ـ٣٨ .
(١٦)ـ كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار لأنور الجندي ص ٦٩ .

القراء الغربيين . والى زلزلة عقيدة الإسلام وتمييعها في عين أبنائها من المسلمين))(١٧) .

فمن أهداف الغزو الفكري : وضع حواجز نفسية ، وأخرى فكرية بين القراء الغربيين وبين الإسلام ، تحول بينهم وبين الدخول فيه ، تتهجم على الإسلام ، وتصفه بصفات مشينة ، تنفر غير المسلمين من الدخول فيه .

وتتضح الحقيقة إذا علمنا أن هناك - في ديار الكفار - كليات قائمة ، تدرس الإسلام بغرض الطعن فيه ، وتشويه صورته النقية في أعين دارسيه .

ومن يدرس من أبناء المسلمين في تلك الكليات الاستشراقية - في الغالب الأعم - ، يعود إلى دياره وقد تشرب تلك الأفكار التي درسها ، وتأثر بتلك الشبهات التي طرحت عليه حول الإسلام ، ونبيه ، وعقائده ، وشرائعه ، ونظمه ، وأخلاقه؛ فيعود ناشرا لتلك الشبهات التي لقنه إياها أعداء الإسلام بين أبناء المسلمين .

سادسا: الهجوم المباشر على عقائد الإسلام، وأخلاقه، وقيمه، ولغة القرآن.

---

(١٧)- المرجع نفسه ص ٧١ . وانظر الإسلام والدعوات الهدامة للمؤلف نفسه ص ٨ .

ولـربما عد البعض هذا الهدف مع سابقه واحدا ، لكن المتأمل في الهدفين يلمح الهجوم الغير مباشر في اولهما ، والهجوم المباشر في الثاني .

وهـذا الهـدف ـ في الغالـب ـ يقـوم بـه قـوم مـن أبـناء جلدتنا ، يـتكلمون بألـسنتنا ، تربوا في أحضان أعدائنا ، ودفعهم الإعجاب بهم إلى اعتناق آرائهم ومبادئهم ، ثم رجعوا إلى بلادهم ليعملوا على تشويه معتقداتنا ، وطمس قيمنا ، وهدم أخلاقنا.

يـتحدث الأسـتاذ أنـور الجـندي عـن هـذا الهـدف الخطير ، فـيقـول : ((وتحـاول حـركة المؤامـرة علـى الإسـلام اليوم أن تتبع نفس الأساليب القديمة ؛ فهي تهاجم أصول القيم الإسلامية، وجذور المفاهـيم الأساسـية، وتهـاجم تاريخ الإسلام، واللغة العربية، وتدعو إلى تفـسخ القـيم الأخلاقـية الإسلامية، بالدعوة إلى إذاعة المجون، والمجاهـرة بالخلاعـة، والانحراف الجنسي؛ وهو نفس الأسلوب الذي اتخذتـه حـركة احـتواء الإسـلام، وكـان ذلـك في الماضي لحساب المجوسـية الفارسـية؛ لـتمكين القـرامطة والباطنـية ، والسيطرة علـى الدولـة الإسـلامية . والـيوم يجـري نفـس المخطـط لحـساب الصهيونية ، والاستعمار ، والشيوعية . . .))(١٨) .

---

(١٨)ـ المؤامرة على الإسلام لأنور الجندي ص١٠ .

فالقوى الحديثة التي تهاجم الإسلام ، اتحدت في الهدف مع القوى القديمة ، واختلفت في المسميات ؛ فالهدف واحد للجميع ؛ وهو النيل من الإسلام ، وإسقاط دولته .

ويقف وراء هذه القوى - في عصرنا الحاضر - : أعداء الإسلام من النصارى الذين يحملون خصومة الدين ، ويطمعون في السيطرة الاقتصادية على بلاد المسلمين ، ويضمرون في أعماقهم كراهية ضخمة للإسلام والمسلمين . ويؤازرهم في العمل على تحقيق هدفهم : الصهيونية الطامعة في السيطرة على العالم ، والشيوعية الإلحادية التي كانت تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان ، وهدم الأخلاق .

ويعمل أذنابهم في بعض بلاد المسلمين على تحقيق أهدافهم ؛ عن طريق :

(١) السيطرة على برامج التعليم في تلك البلاد ، ومن ثمّ توجيه التعليم توجيها علمانيا لا يؤمن بدين ، ولا يصدّق برسول ، وينطلق نحو الإلحاد والفساد ، ويمجّد الثقافة الغربية

(٢) السيطرة على الإعلام ، والقيام إثر ذلك بنشر المجلات الخليعة ، والتمثيليات المسمومة ، والأفلام الهابطة ، والروايات الماجنة .

(٣) الوصول إلى مناصب حساسة تسوغ لهم سن القوانين والتشريعات التي تخالف الشريعة الإسلامية ، والعمل بعد ذلك على إلغاء المحاكم الشرعية ، ودور الإفتاء، والسيطرة على الأوقاف الإسلامية .

والله ﷻ الذي تكفل بحفظ هذا الدين ، كما أبطل مخططات أعدائه قديما ، فهو قادر على ذلك دائما ، لكن من سننه الجارية في خلقه : أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

القومية العربية :

"القومية العربية" حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعوا إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوربا .

وقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها ،

ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م .

وأهم الجمعيات ذات التوجه القومي : الجمعية السورية التي أسسها عدد من النصارى منهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق والجمعية السورية في بيروت التي أسست سنة ١٨٦٨م .

وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينة غير المسلمة ، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها ، ولم تصبح تيارا شعبيا عاما إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر حين سخر لها أجهزة الإعلام وإمكانات الدولة .

وأساس فكرة القومية العربية إبعاد الدين الإسلامي عن معترك حياة العرب السياسية والإجتماعية والتربوية والتشريعية ،فهي إذن ضرب من ضروب الغزو الفكري الذي أصاب العالم الإسلامي ، لأنها في حقيقتها صدى للدعوات القومية التي ظهرت في أوروبا .

ويرى دعاة الفكر القومي - على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر - أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية

العربية هي : اللغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والأمال المشتركة . كما يرون أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط ، وأن الحدود بين أجزاء هذا الوطن حدود طارئة ، ينبغي أن تزول وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة ، وحكومة واحدة ، تقوم على أساس من الفكر العلماني .

ويتبنى دعاة الفكر القومي شعار : ((الدين لله والوطن للجميع)) . والهدف من هذا الشعار ، إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية ، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى .

والدعوة القومية التي ظهرت في أوربا وتأسست بتأثيرها دول مثل إيطاليا وألمانيا تأثر بها كثير من الشباب العربي ومن المفكرين العرب، كما ظهرت عدة أحزاب قومية منتشرة في البلاد العربية مثل حركة الوحدة الشعبية في تونس ، وحزب البعث بشقيه في العراق وسوريا ، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام ، وفي ليبيا .

فضلا عن أن بعض الحكام العرب يتبارون في ادعاء القومية وكل منهم يفتخر بأنه رائد القومية العربية ويدعي أنه الأجدر بزعامتها .

المسألة الشرقية :

اتخذت المسالة الشرقية مفهوما خاصا في القرن التاسع عشر وتمثلت في عدة أزمات .

ظهر مفهوم "المسالة الشرقية" في القرن التاسع عشر, نتيجة لضعف الدولة العثمانية التي أوشكت على الانهيار, ونتيجة لسيطرتها على أراض واسعة جدا تمتد على قارات ثلاث(أوروبا أسيا وأفريقيا). القضية أو المسالة الرئيسية التي اشتبكت بسببها الدولة الأوروبية في سلسلة من الخلافات تطورت أحيانا إلى التهديد بالحرب أو إعلان الحرب نفسها.

فالمسالة الشرقية هي مجمل (صراع) بين الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر, حول تقسيم أملاك الرجل المريض (الدولة العثمانية) الناجم عن ضعفها وقد مرت في خمس أزمات,هي: حرب التحرير اليونانية , قضية محمد علي , حرب القرم , الحرب الروسية_التركية , مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ثم ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا عام ١٩٠٨ (في مطلع القرن العشرين).

العلمانية :

العلمانية مصطلح حديث يعني اللادينية أو الدنيوية ، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدا عن الدين .

ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع ، وإبقاؤه حبيسا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه ، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة و نحوهما.

وتتفق العلمانية مع الديانة النصرانية في فصل الدين عن الدولة حيث لقيصر سلطة الدولة ولله سلطة الكنيسة ، وهذا واضح فيما ينسب للسيد المسيح من قوله :(اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) . أما الإسلام فلا يعرف هذه الثنائية، قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (الأنعام:١٦٢)

وقد ظهرت "العلمانية" في أوربا منذ القرن السابع عشر وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر وانتقلت بشكل

أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس ولحقتها العراق في نهاية القرن التاسع عشر . أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين ،وقد اختيرت كلمة "علمانية" لأنها أقل إثارة من كلمة "لا دينية" .

ففي مصر دخلت العلمانية مع حملة نابليون بونابرت . وقد أشار إليها الجبرتي الجزء المخصص للحملة الفرنسية على مصر وأحداثها – بعبارات تدور حول معنى العلمانية وإن لم تذكر اللفظة صراحة ، وأول من استخدم هذا المصطلح العلمانية إلياس بقطر في معجم عربي فرنسي من تأليفه سنة ١٨٢٧ م . وقد أدخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م،وكان هذا الخديوي مفتونا بالغرب ،وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا .

وفي تركيا اتخذ مصطفى كمال أتاتورك العلمانية شعارا أساسيا للدولة عقب إلغاء الخلافة الإسلامية .

وأدخل القانون الفرنسي في تونس سنة ١٩٠٦ م .

وألغيت الشريعة في العراق والشام أيام إلغاء الخلافة العثمانية وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها .

وفي سنة ١٨٣٠ م تم إلغاء الشريعة الإسلامية في الجزائر عقب الاحتلال الفرنسي. في سنة ١٩١٣م دخل القانون الفرنسي المغرب . وفي معظم أفريقيا امتلكت حكومات نصرانية السلطة وأعلنت شعار العلمانية .

أشهر دعاة العلمانية :

ومن أشهر دعاة العلمانية في دول الشرق الإسلامي: أحمد لطفي السيد ، إسماعيل مظهر ، قاسم أمين ، طه حسين ، عبد العزيز فهمي ، ميشيل عفلق ،أنطوان سعادة ، سوكارنو ، سوهارتو ، نهرو، مصطفى كمال أتاتورك ،جمال عبد الناصر ، أنور السادات (صاحب شعار لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) ، د. فؤاد زكريا ، د. فرج فودة وقد اغتيل بالقاهرة مؤخرا ، وغيرهم .

ولعل من أبرز النظريات العلمانية التي حاول العلمانيون نشرها في دول المشرق الإسلامي بحجة الإصلاح ، (وهي في حقيقتها استدمار فكري واضح) ، وكان لها أكبر الأثر في العالم الإسلامي : **نظرية التطور لتشارز دارون** صاحب كتاب أصل الأنواع (ظهر سنة ١٨٥٩م) ، حيث ركز فيه على قانون (الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب) ، وقد جعلت هذه النظرية الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين

السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها . وهذه النظرية قد أدت إلى انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد ، وقد استغل اليهود هذه النظرية بدهاء وخبث .

كما نشر العلمانيون آراء " نيتشه " التي زعم فيها أن الإله قد مات وأن الإنسان الأعلى (السوبر مان) ينبغي أن يحل محله.

وكذلك نشروا أفكار فرويد (اليهودي) التي تؤكد أن الإنسان حيوان جنسي . وأن كل ظواهر الحياة قائمة على الدافع الجنسي .

كما نشروا أفكار كارل ماركس (اليهودي) الذي فسر التاريخ تفسيرا ماديا ، وكان داعية الشيوعية ومؤسسها، وكان يرى أن الدين أفيون الشعوب .

وقد اضطربت أفكار العلمانيين في دول الشرق الإسلامي ، فبعضهم ينكر وجود الله أصلا ، وبعضهم يؤمنون بوجود الله لكنهم يعتقدون بعدم وجود آية علاقة بين الله وبين حياة الانسان ، ويرون أن الحياة تقوم على أساس العلم المطلق وتحت سلطان العقل والتجريب ، ورأوا إقامة حاجز بين عالمي الروح والمادة والقيم الوحية لديهم قيم سلبية ، وفصلوا الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي. واهتموا بتطبيق مبدأ النفعية على كل

شئ في الحياة . و اعتمدوا مبدأ الميكافيلية في فلسفة الحكم والسياسية والأخلاق . ونشروا الإباحية والفوضى الأخلاقية وهدموا كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية .

العولمة :

مصطلح العولمة ترجمة لكلمة (Globalization) في اللغة الإنجليزية ، وكلمة (Mondialization) في اللغة الفرنسية . وهو مصطلح ظهر حديثاً " في الولايات المتحدة الأمريكية على يد عالم الاجتماع الكندي " مارشال ماك لوهان " عندما صاغ في أوائل السبعينيات من القرن العشرين مفهوم القرية الكونية ، وبعد ظهور مصطلح العولمة الذي يعني بمفهومه المبسط تعميم الشيء ، وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله " .

وقد استعمل الباحثون والكتاب مصطلح العولمة في مجالات مختلفة شملت السياسة ، والاقتصاد ، والثقافة ، والأدب ، والتربية ، والإعلام ، والاجتماع ، والتقنية ، والبيئة ، وغيرها من المجالات العلمية والمعرفية الأخرى .

وعلى الرغم من أن مصطلح (العولمة) لم يتداول إلا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه عام ١٩٨٩م / ١٩٩٠م ؛ إلا أنه ظل مفهوما غير محدد ، وغير متفق عليه بين العلماء والباحثين؛

ولعل ذلك راجع في تعدد الرؤى حول هذا المصطلح وتفسيراته ، ويؤكد ذلك ظهور مصطلحات أخرى تتوافق مع مدلول هذا المصطلح ، مثل : (الكونية) ، (الكوكبة) ، (العالمية) أو (التدويل) ، (الأمركة) ، (الغزبنة) ، (النظام العالمي الجديد) ، إلى غير ذلك . إلا أن استخدام مصطلح (العولمة) يُعد من وجهة نظر الكثيرين المصطلح الأكثر شيوعا والأقرب دلالة على المعنى المقصود .

وتعريف العولمة لغويا أنها " مصدر توليدي من كلمة (عالم) ، ويفترض لها اشتقاقها من الفعل (عولم ، يُعولم ، عولمة) بطريقة التوليد القياسي ".

وللعولمة عدة تعريفات ، منها : أنها "سيطرة الثقافة الغربية على سائر الثقافات . وسيطرة الثقافة الغربية إنما تعني - بتحديد أكثر - سيطرة الثقافة الأمريكية ، أو ما يُعبر عنه بأمركة العالم ؛ وأمركة العالم هي حقيقة تعاني منها حتى أوروبا نفسها "

أو أنها " غزو ثقافي اجتماعي اقتصادي سياسي يستهدف الدين والقيم والفضائل والهوية ".

أو أنها "وضعية كونية جديدة ، تخترق كل مجالات الحياة ، وتترك بصماتها على مختلف جوانب العيش والتعامل".

أو أنها "بناء عالم واحد ، أساسه توحيد المعايير الكونية، وتحرير العلاقات الدولية ، السياسية والاقتصادية ، وتقريب الثقافات ، ونشر المعلومات ، وعالمية الإنتاج المتبادل ، وانتشار التقدم التكنولوجي، وعالمية الإعلام ..إلخ" .

و"العولمة تعد واحدة من أبرز وأهم الظواهر العالمية المعاصرة المتعددة الأبعاد ، والتي امتد نطاقها إلى مجالات الحياة الإنسانية المختلفة ؛ والتي تسعى إلى الهيمنة والسيطرة الشاملة على كل مناحي الحياة بمختلف الصور والأشكال والأساليب المباشرة وغير المباشرة لفرض نموذج الحياة الأمريكي على العالم ، أو سيادة النموذج الرأسمالي".

و"العولمة ظاهرة معاصرة تعود جذورها إلى بعض الحضارات التاريخية القديمة" .

وتهدف العولمة إلى إعادة تشكيل العالم وفق مصالح أمريكا وأطماعها ، وفق مسارات ثلاثة :

اقتصادية (بضغط العالم في سوق رأسمالية واحدة يحكمها نظام اقتصادي واحد ، وتوجيه القوى الرأسمالية العالمية ، وضبط حركتها) .

وسياسية (بإعادة بناء هيكليات أقطار العالم السياسية في صيغ تكرس الشرذمة والتشتت الإنسانيين ، وتفكك الأوطان والقوميات إلى كيانات هزيلة قائمة على نزعات قبلية عرقية ، أو دينية طائفية ، أو لغوية ثقافية ، بغية سلب أمم العالم وشعوبها القدرة على مواجهة الزحف المدمر للرأسمالية العالمية) .

وثقافية (بتقويض البنى الثقافية والحضارية لأمم العالم، بغية اكتساح العالم بثقافة السوق التي تتوجه إلى الحواس والغرائز ، وتشل العقل والإرادة ، وتشيع الإحباط والخضوع) .

أسباب ظهور العولمة :

١ – تحرير التجارة الدولية .

٢ – تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة .

٣ – الثورة المعرفية والتكنولوجية .

٤ – تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيات .

٥- تفكك الاتحاد السوفيتي ، وسقوط الشيوعية عام ١٩٨٩م ١٩٩٠/م .

٦- إخفاق كثير من المشروعات التنموية الضخمة في الدول النامية والفقيرة .

٧- غياب العديد من المبادئ والقيم الأخلاقية والإنسانية في عالم اليوم .

ويعد التطور العلمي والتقني من أهم وأبرز العوامل التي أسهمت بفعالية كبيرة في انتشار العولمة ، ويتمثل هذا التطور العلمي والتقني في ما يعيشه العالم المعاصر منذ التسعينيات الميلادية من تطور مذهل لأجهزة الاتصال الحديثة ، ووسائل نقل المعلومات المختلفة التي يعبر عنها بثورة الاتصالات وانفجار المعلومات التي تجسدت في " الحواسيب ، والشبكات الإلكترونية ، والأنظمة الرقمية ، وسواها من التقنيات العالية والوسائط المركبة التي تتيح نقل المعطيات والعلامات ، أو إدارة الأعمال والأموال من على بعد وبسرعة قصوى . وبذلك يجد المرء نفسه إزاء ظاهرة كونية جديدة على مسرح التاريخ العالمي ؛ حيث عالم جديد آخذ في التشكل سواء من حيث فضائه ومجاله ، أو من حيث بنيته ونظامه . ومن حيث آليات اشتغاله ومنظومات تواصله.

والمعنى أن هذا التطور العلمي والتقني يعد القوة الأساسية ، والطاقة المولدة والمحركة للعولمة ؛ إذ أنها توفر الفرص وتتيح المجال

للجميع حتى يطلعوا على ما لم يكن بالإمكان الإطلاع عليه من قبل .

وليس هذا فحسب ؛ فقد يسر هذا التطور العلمي والتقني للإنسان توافر الكثير من الخدمات والإمكانات التي لم تكن متوافرة من قبل ، لاسيما وأنها (أي العولمة) "تمكنت من الوصول إلى كل مكانٍ في العالم ، وأصبحت بذلك ذات قدرةٍ غير مسبوقة على التأثير في عقليات من يتلقونها ، وتكوين مفاهيمهم ومواقفهم ، والتأثير في عاداتهم ونمط حياتهم عن طريق ما تذيعه من أخبار ، وما تدعو إليه من أفكار ، وما تبثه من برامج ، وما تقدمه من حواراتٍ ومناقشات ، وما تتفنن فيه من إعلاناتٍ" .

أما أهم أدوات هذا التطور العلمي والتقني فتتمثل في :

(١) شبكات البث الفضائي الإذاعي والتلفازي التي تعتمد على وسائل الإعلام (المرئية ، والمسموعة ، والمقروءة) التي وصلت إلى كل مكانٍ ، والتي تمكنت من تحويل العالم إلى قرية واحدةٍ بما تمتلكه من قدرةٍ فائقة على تخطي الحدود والمسافات ، وقد تمكنت هذه الوسائل من التأثير المباشر والفاعل في حياة الناس في كل مكان " إذ إن ما تبثه وسائل الإعلام هو الذي يصنع الأحلام ،

والأحلام) من العوامل التي توجّه السلوك ، وبذلك يتم تنميط العالم".

وليس بخافٍ ما يبذل من الجهود الجبارة لشبكات البث الإعلامي الفضائي المختلفة التي تعمل على مدار الساعة في سبيل تنميط ثقافة العالم من خلال التركيز على برامج ورسائل إعلامية معينة وموجهة تهدف في النهاية إلى عولمة المجتمعات والأفراد ، وطمس هويتهم بمختلف الطرق والوسائل المباشرة وغير المباشرة .

(٢) شبكة الإنترنت أو ما يعرف (بالشبكة العنكبوتية) التي تقدم خدماتٍ عديدةٍ أصبحت معها وسيلة فاعلة ومؤثرة في تبادل الأفكار والآراء ووجهات النظر ، و نقل الثقافات وتسويق المنتجات و نحوها . وتأتي خطورة شبكة الإنترنت لكونها "قد وفرت وسيلة للنفاذ السريع إلى المعلومة ، كما أمنت انتشارها وتوظيفها على نحوٍ مذهلٍ . وقد باتت من أهم الوسائل الأساسية لتحقيق النزعة الحالية نحو العولمة".

ويمكن القول : "إن شبكة الإنترنت قد استوعبت انعكاسات الثورة المعرفية التي اجتاحت العالم مؤخرا من خلال قدرتها الهائلة

علـى تحـويـل العـالم إلى قـريـة كونيـة ، يـتم فيها التواصل العلمي والمعرفي بكل يسر وسهولة متخطيا الحدود الزمانية والمكانية .

إن حقـيقـة العـولمة تكـمـن في الـسيطرة والهيمنة الثقافية باعتـبارها هـدف العـولمة النهائـي ؛ بيـنـما تـتخذ مـن بقية المسارات الـسياسية والاقتصادية وغيرها وسائل ضغط لتحقيق ذلك الهدف؛ وهـو مـا يـؤكده واقعنا المعاصر الذي يقوم على مبدأ مسخ الهوية ، ومحـو المعـالم الشخـصية ، وتذويب المقومات العقائدية والفكرية والثقافية حتى تتحقق الهيمنة والسيطرة الاقتصادية .

من دعوات الإصلاح في دول الشرق الإسلامي

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

قبل أن نتحدث عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، لابد من التعرف على أوضاع البلاد قبيل دعوته ، وبخاصة الحالة الدينية .

وتمثل الحياة الدينية أهم نقطة ينبغي بحثها لمعرفة أوضاع أي دولة بصفة عامة ؛ لأن المجتمع المستقر سياسيا واجتماعيا واقتصاديا هو ذلك المجتمع المرتبط بعقيدة واضحة، وله توجه محدد ، وهدف ثابت . ولعلنا نلاحظ هذه الأيام بعض الدول المعاصرة التي تملك اقتصادا قويا مثلا ، أو التزاما بمنهج سياسي فقط لا يمكن القول : إنها مستقرة تماما .

ولقد ظهر أثر مجتمع العقيدة الإسلامية الأول في عصر النبوة في المدينة المنورة ، حين أصبح الاستقرار مظهره والإيمان مخبره ، والاستقامة نهجه ، حيث عم البلاد الرخاء ، وانتشر الخير والنماء بفضل الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وعرف الصحابة رضوان الله عليهم أثر العقيدة في حياة الناس ، فكانوا إذا دخلوا بلدا جديدا فاتحين لها يقومون ببناء المسجد أولا ، رمزا لهذه العقيدة ، وليتمكنوا من خلاله من توصيل مفهوم التوحيد الخالص .

ولما كثرت البلاد المفتوحة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، واحتاج المسلمون الجدد إلى من يعلمهم أمور دينهم ويصحح لهم معتقداتهم ، كان لا بد من عدد كبير من الدعاة، الأمر الذي كان عسيرا ، مما جعل الانحراف عن العقيدة الصحيحة بات أمرا وشيك الوقوع .

وبمرور الزمن ، وانشغال المسلمين بالدنيا وزخارفها ، وتنافسهم عليها من جانب ، والحروب الطاحنة التي عصفت بديارهم من جانب آخر ، ودخول عناصر جديدة من البشر بمعتقدات فاسدة لم يتم تصحيحها من جانب ثالث ، ابتعد المسلمون عن عقيدتهم ، وعاد الكثير منهم إلى حياة تشبه حياة الجاهلية الأولى ، ولم يعد في مقدور الدعاة استيعاب الموقف ، بعد أن استشرى الفساد ، وعم البلاء أرجاء البلاد .

غير أنه من معجزات الدين الإسلامي الباقية عبر العصور ما بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه : لا تزال طائفة من الأمة الإسلامية ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . وأن الله عز وجل يقيض على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينهم .

وعلى هذا ، فإن حديثنا عن الحالة الدينية هنا سيتحدد في البلاد التي تكونت منها فيما بعد "المملكة العربية السعودية" ، وهي : نجد، وشرقيها (الإحساء) ، والحجاز ، وجنوبيها (عسير ونجران) .

ففي بلاد (نجد) : "كان الشرك إذ ذاك قد فشا في نجد وغيرها ، وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليها ، والتبرك بها والنذر لها ، والاستعاذة بالجن ، والذبح لهم ، ووضع الطعام لهم ، وجعله لهم في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ، ونفعهم ، وضرهم ، والحلف بغير الله ، وغير ذلك من الشرك الأكبر والأصغر" (١٩) .

ومن أمثلة ذلك أنه كان بإحدى قرى نجد (الفدا) "فحل من شجر النخل يعتقد فيه العامة – ظلما وشركا أن له قوة روحية ، وتأثيرا نفسيا ، يقف تحته الرجال والنساء والأطفال تختلط أصواتهم راجية مستغيثة ، مما لا يصلح القيام به إلا لله سبحانه وتعالى . فهذا مريض يطلب الشفاء ، وآخر يطلب وفاء دينه ، وذاك يطلب أن يوسع عليه في الرزق ، أو يعيد إليه غائبا . والنساء يبتن

---

(١٩) عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر ١٦/١ .

تحت ظله في شبه رقصة وثنية ، رافعات عقائرهن ، هذه ترجوه يهيء لها الزواج ، وتلك الولد ، إلى غير ذلك "(٢٠) .

وكان " في الدرعية كهف أو غار كبير له أسطورة ، استحالت مع المدى في العقول الضالة إلى أنواع من العبادات"(٢١) .

ولم تختلف الحالة الدينية (في الحجاز) عنها في (نجد) ، فقد وصلت البدع والخرافات إلى المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، وامتلأت شعيرة الحج بالبدع المخالفة لشريعة الإسلام الصحيحة ، واضطربت حقيقة التوحيد في نفوس الناس، وكثر الجهل ، حتى ظهر الناس يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ (٢٢) .

وفي (جنوبي غربي الجزيرة) ازدادت الحالة سوءا ، حيث ظهرت الأضرحة التي يحج إليها الناس في مواسم سنوية ، وينحرون لها الذبائح ، وبذلك انتشرت رذائل وقبائح كثيرة ، وكان لوجود الحركة الإسماعيلية في نجران أثر كبير في انتشار البدع والخرافات (٢٣) .

---

(٢٠) حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لحمد أحمد العقيلي : ١٦ .
(٢١) المرجع السابق .
(٢٢) المرجع لاسابق : ١٨ – ٢١ .
(٢٣) تاريخ المملكة العربية السعودية – ج ١ – د . عبد الله صالح العثيمين : ٢٧ .

وفي (شـرقي الـبلاد) حـيث الأحـساء والقطـيف ، كانـت الخـرافات الشديدة التي امتدت بجذورها منذ كانت الأحساء مركز دولة القرامطة ، وقد تأثرت البلاد بكثير من البدع التي تأصلت فيها ، على الرغم من تقلبها بين الباطنية والجعفرية والسنية .

لم يكن منطق " التوحيد " هو الذي يحكم علاقات القبائل ، بـل مـنطق القـوة والظلـم والجـور ، لذا كانت أمورهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية مضطربة إلى حد كبير .

ونسوق هنا قولين يتصلان بهذا الموضوع :

يقول " لوثرب ستودارد " : (في القرن الثامن عشر كان العالم الإسـلامي قد بلغ من الضعف أعظم درجة ، ومن التدني والانحطاط أعمـق دركـه ، فاربـد ، وأطـبقت الظلمـة علـى كـل صـقع من أصـقاعه ، وانتـشر فـيه فـساد الأخلاق والآداب ، وتلاشـى ما كان باقيا من التهذيب العربي ، وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل ، وانطفـأت قبسات العلم الضئيلة ، ليس يرى في العالم الإسلامي في ذلك العهـد سوى المستبدين)(٢٤) .

ثم يقدم الرحالة " نيبور " صورة للمدينتين المقدستين مكة والمديـنة في ذلـك العـصر ، يوضح فيها الحالة السياسية والدينية ،

---

(٢٤) حاضر العالم الإسلامي – لوثرب ستودارد – ترجمة عجاج نويض : ٢٥٩/١ .

فيقول : (الحالة المؤسفة التي آلت إليها المدينتان المقدستان ، تلك الحالة التي أثارت سخط الله ورسوله ، وأغضبت محمد بن عبد الوهاب ، ودفعته على الإقدام على الإصلاح ، أن شريف مكة لم يعد سوى أمير ذي سلطة زمنية ، وقد فقد سلطته الروحية في نظر المسلمين ، وهو يحصل على إيراد ضخم من الحج ...) إلى أن قال : (وبما أن المدعين الشرعيين لحكم البلاد هم فرع من سلالة النبي محمد المنحدرة من سلالة الحسن بن علي ، يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة ، غدت السلطة مثار نزاع لا نهاية له ، ويفرض أقواهم نفسه على الآخرين ، ويتدخل سلطان تركيا أحيانا في النزاع ليجلس الآخرين على العرش أحد الأخصام ، ولا يتورع هؤلاء الأمراء المنازعون عن أن يصلوا بمعاركهم إلى قلب الأماكن المقدسة ، مخالفين بذلك نصوص القرآن) (٢٥) .

أما عن الحالة السياسية والاجتماعية : فلقد كان للتدهور الديني والاضطراب العقدي سببا مباشرا في تدهور أمور الحياة واضطرابها ، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا في المناطق التي نتحدث عنها ، وفيما يلي صورة مختصرة لذلك : -

(٢٥) اكتشاف جزيرة العرب : جاكلين بيرين – ترجمة قدري قلعجي : ١٧٦ .

لقد كانت " القبيلة " أساسا للوحدة الاجتماعية في أرجاء الجزيرة العربية ، وهي تجمع بين البدو الرحل ، والحضر المستقرين، فالبدو يرتحلون بحثا عن الكلأ والمرعى ، يضربون أكباد الإبل في الصحراء ، ويجوبونها شملا وجنوبا وشرقا وغربا ، وقد تضطرهم أحوالهم إلى التقاتل والهجرة . أما الحضر ، فينعمون بالاستقرار في القرى والواحات ، ولكل بيئة ما يميزها ، ولذلك تختلف طباعهم بحسب بيئاتهم التي يعيشون فيها .

وتسهم قوة القبيلة في ذيوع صيتها ، وظهور هيبتها بين القبائل ، وقد تعتاد قبيلة ما على استخدام القوة للسيطرة على غيرها ، وإخضاعها لسلطانها ، والاستيلاء على ثرواتها (٢٦) .

ويمكن القول : إن الروابط الاجتماعية في ظل هذا الفساد الديني والسياسي قد تفككت ، حيث لم يبق في (القبيلة) إلا العصبية المقيتة التي حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، وقال : " دعوها فإنها منتنة " . وقد ظهر السلب والنهب، وكثر قطاع الطرق، حتى أصبح طريق الحجاج غير آمن ، وبات الفساد يعم أرجاء البلاد .

وقد ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ظل هذا الجو المفعم بالغيوم في مجتمع تدهورت شئونه ، وترك الفطرة ، وتفشى فيه

---

(٢٦) تاريخ المملكة - د . العثيمين : ١٢ .

الجهل ، وانتشرت البدع والخرافات ، فراح يدعوا إلى إصلاح ما فسد ، وقد وضع يده في يد الأمير محمد بن سعود ؛ ليقيما الدولة السعودية الأولى .

فمن هو محمد بن عبد الوهاب ؟ وما هي دعوته ؟ وما أهدافها ؟ وهل تحقق له ما أراد ؟ وكيف وصل إلى الدرعية ليبدأ منها - بمساعدة أميرها - قيام دولة تطبق الشريعة الإسلامية ، وتتنامى إلى تضم بين جناحيها مناطق الجزيرة العربية ؟ هذا هو ما تتناوله السطور التالية بإذن الله ..

الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدعوة الإصلاحية :

نسبه :

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف .

مولده :

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥هـ في بلدة العيينة . وكانت أسرته تسمى (آل مشرف) مشهورة بالعلم ، كما كانت ميسورة الحال .

نشأته و دراسته ورحلته في طلب العلم :

بدأ الشيخ حياته في أسرة علمية ذات شرف ومكانة بين الناس ، فقد اشتهر جده سليمان بن علي بالعلم ، حيث كان قاضيا ، وكذلك كان الشيخ عبد الوهاب – والد الشيخ محمد قاضيا للعيينة ، ثم لحريملاء ، وقد تعلم الشيخ محمد القراءة والكتابة ، وما إن بلغ العاشرة حتى أتم حفظ كتاب الله تعالى ، وهذه البداية المباركة كانت فاتحة خير على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبمثل هذه البداية أوصي كل مسلم أن ينشئ أبناءه ، فيصلهم بكتاب الله تعالى ، ويدفعهم إلى حفظه ، فذلك مؤهل طبيعي للعقل الواعي ، لأن حفظ القرآن الكريم يعود الناشئ على ملكة الحفظ والاستيعاب ، كما يقوم اللسان ، ويساعده على المنطق السليم ، فضلا عن الحصيلة اللغوية التي سيحصل عليها في سن مبكر ، وكذلك التزكية الإيمانية للنفس ، وطهارة الروح ، وصفاء الشعور ، ونقاء السريرة ، والارتباط الدائم بالله رب العالمين ، ويكفي حافظ القرآن الكريم عزا أن يكون ممن جعلهم الله تعالى من حفظة الذكر الحكيم ، فقد قال جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، فبوركت قلوب تحفظ هذا الذكر ، وبورك قوم جعلوا هذا العمل من أسمى أهداف التربية عندهم .

إن الصبي الذي ينشأ ملازما لكتاب الله تعالى، ينشأ جادا، لا يعرف الهزل، فتتفتق فيه سمات الرجولة المبكرة، وهذا يبشر بطيب النشأة في طاعة الله عز وجل.

وبعد أن أتم الشيخ محمد بن عبد الوهاب حفظ كتاب الله تعالى شرع في مدارسة العلوم الشرعية، وكان جل اهتمامه بالفقه الحنبلي، حيث أخذ يتلقاه على يد أبيه القاضي الحنبلي للعيينة، وبهذا اتسعت مدارك الصبي الناشئ، وإذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين، ويسر له أسباب ذلك، فارتبط الشيخ محمد بأبيه الشيخ القاضي عبد الوهاب بن سليمان، وحضر مجلسه، وتعرف على كثير من الأحكام فوعاها،وقد أقر والده بنبوغه،معلنا أن محمدا قد أفاد قبل بلوغه فوائد من الأحكام بسبب قوة ذاكرته ،وحسن فهمه(٢٧).

رحلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في طلب العلم:

عاد الشيخ الشاب من الرحلة الأولى إلى المدينة المنورة مفعما بحب العلم، وقد تاقت نفسه إلى مواصلة الدراسة والتحصيل، فقرر الرحلة في طلب العلم.

---

(٢٧) روضة الأفكار (٢٥/١).

بدأ الشيخ رحلته بالحج للمرة الثانية ، وهذه بداية موفقة، فعلها كثير من علماء الأمة وسلفها الصالح ، فلهذه البداية ميزات عظيمة تفيد طالب العلم ، فهي تجعله :

أولا : صافي الذهن من شواغل الدنيا، وقد تمحض للعبادة.

وثانيا يؤدي ركنا من أركان الإسلام مستكملا بذلك أركان الدين، فالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام ، يمكن أن تؤدى جميعها في البداية ويستمر المسلم على أدائها وهو في بلده ، أما الحج فهو رحلة تحتاج إلى صبر وجلد ، وإمكانات ، وبالحج يستكمل المسلم أركان دينه الخمسة.

وثالثا : تعطيه دروسا عملية في كيفية مخالطة الناس، والصبر عليهم ، ولين الجانب لهم ، والتعاون معهم .

ورابعا : تزكي نفسه وتطهر روحه ، وترقق مشاعره ، لينطلق بعد ذلك إلى حياة علمية رحبة.

وخامسا : يأخذ العلم من أنقى بقاع الأرض ، ومهد الفكر الإسلامي الصحيح .

أخذ يدرس على أبيه الفقه الحنبلي ، ويقرأ في كتب العلماء ، ويحضر مجلس قضاء أبيه ، وقد أدرك والده نجابته وحسن حفظه ، وإتقانه ، فازدادت عنايته به . فلما بلغ الثانية عشر

من عمره ظهرت عليه علامات الرجولة، فزوجه أبوه، ثم ما لبث محمد أن سافر لأداء فريضة الحج، وفي هذه الرحلة تعلم الشيخ كيف يصبر على الناس، ورأى عن كثب ما كان يقع فيه الناس من بدع تصل بهم إلى حد الشرك، وذهب بعد أداء الفريضة للمرة الأولى إلى المدينة المنورة، ومكث فيها نحو شهرين رأى مجالس العلم، وجالس بعض العلماء في المسجد النبوي، ثم عاد إلى العيينة، وأخذ يقرأ ويهتم بالعلم، غير أن العيينة لم تشف غليله من العلم، فخرج منها في رحلة لطلب العلم بدأها بأداء فريضة الحج للمرة الثانية، كما كانت عادة سلف الأمة من العلماء، ثم جلس في المدينة المنورة ولازم اثنين من أكابر علماء المسجد النبوي، لازم الشيخ العلماء، وملازمة العلماء كلها خير، فهي لا تفتح لطالب العلم آفاقا من المعرفة فحسب، بل تجعل الطالب صورة مصغرة من شيخه، يقلده في كل شيء، وتحدث علاقة ود قوية بينهما، فتجعل الشيخ يتعهد تلميذه، ويصبر عليه، ويغرس فيه مفاهيم وأخلاقيات بسلوكه أكثر مما يغرسها بأقواله، فضلا عن توريث العلم. فما أحرانا إلى العودة لمثل هذه الملازمة، ولعل الإرشاد الطلابي الذي تسعى إليه مراحل التعليم الجامعي يحقق شيئا من ذلك، إذا صلحت النوايا، وصدقت العزائم.

أحدهما هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف ، وكان من أهل المجمعة (إحدى قرى نجد) ، فتلقى الشيخ محمد على يدي هذا العالم الفقه الحنبلي بتوسع ، وأخذ عنه كذلك فكر شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ابن سيف متيما به ، أما العالم الثاني الذي لازمه الشيخ محمد هو الشيخ محمد بن حياة السندي ، صاحب (حاشية السندي على صحيح البخاري) ، وبهذا تعلم الشيخ محمد منه الحديث والفقه ، فضلا عن أن السندي كان ممن يبغض البدع ، فتأثر الشيخ محمد به .

والخلاصة أن الشيخ محمد بدأ رحلته في طلب العلم بالمدينة المنورة ، وأخذ عن علمائها خمسة علوم هي : الفقه الحنبلي والفقه العام وفكر شيخ الإسلام ابن تيمية والحديث النبوي زبغض البدع .

ثم انتقل الشيخ إلى البصرة ، وهناك لازم الشيخ محمد المجموعي ، وأخذ عنه : التفسير، وقواعد اللغة العربية ، باعتبار البصرة من المراكز الثقافية المهتمة بعلوم اللغة العربية.

ولما كانت البصرة مركز تجمع للعديد من الأفكار والمذاهب المتضاربة ، وفيها من الفرق المختلفة الشيء الكثير ، اضطر الشيخ محمد أن يناظر بعض علماء هذه الفرق ، وكان

كثيرا ما يوقعهم في الحرج بسبب قوة حجته وسلامة منطقه ، مما أوغر صدر العلماء ، فوشوا به عند حاكم البصرة الذي ما لبث أن أمر به فطرد منها . وبهذا يكون الشيخ محمد قد تحول لأول مرة من طالب علم إلى داعية .

ثم اتجه إلى الأحساء ، وهناك ناظر العلماء ، وبخاصة الشيخ محمد بن عفالق ، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، والشيخ عبد الله بن فيروز ، ولم ترق له الحياة في هذا المكان ، فعاد إلى العيينة .

ولم يمكث في العيينة طويلا ، حيث كانت أسرته قد انتقلت إلى حريملاء ؛ لمباشرة والده قضاء هذا البلد ، فارتحل الشيخ محمد إليها .

ولما اتجه إلى حريملاء ، بدأ في تصنيف كتابه (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) ، وانطلق ينشر فكره الإصلاحي داعيا إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة سلف هذه الأمة الصالح . وقد لقيت دعوته قبولا عند كثير من الناس الذين التفوا حوله ، وأخذوا ينسخون كتابه ، غير أن معارضة والده لأسلوب الدعوة كان من معوقات سرعة انتشار هذه الدعوة الإصلاحية .

ومن المهم هنا أن نحدد هم أهداف دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب المتمثلة في : إفراد الله تعالى بالعبادة .ومحاربة الشرك بجميع صوره وأشكاله .وسد الذرائع المؤدية إلى الشرك .والقضاء على البدع والخرافات ، وبخاصة البدع في الدين . وتطبيق الشريعة الإسلامية في ظل دولة تحمي هذه الدعوة .

بدايته للدعوة و تطبيقها :

لاشك أن بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت في البصرة حين تحول من طالب علم إلى داعية ، ثم استمر مناظرا للعلماء في الأحساء ، ولما عاد إلى حريملاء وألف كتابه في التوحيد انتشرت دعوته بشكل أوسع ، غير أنه واجه معارضة شديدة في حريملاء بدأت بعدم موافقة والده على أسلوب الدعوة الذي كان يتبعه الشيخ محمد ، وإن كان الوالد مقتنعا بجوهر الدعوة ، وكان بعض العامة قد اجترءوا على الشيخ ، وظلت دعوته تنتشر ببطء ، حتى وصلت إلى بعض البلدان المجاورة ، ومن أهمها (العيينة) – مسقط رأس الشيخ . ولما مات الشيخ عبد الوهاب انتقل الشيخ محمد إلى العيينة ، وكان لانتقاله عدة أسباب نوجز أهمها فيما يلي : الاعتداء المتكرر على الشيخ في حريملاء ، وبخاصة بعد وفاة والده .ولأن العيينة مسقط رأس الشيخ

محمد. واقتناع أمير العيينة بدعوة الشيخ. وكثرة أنصار الشيخ في العيينة. وانقسام بيت الحكم في حريملاء.

وبدأ الشيخ مرحلة جديدة من مراحل الدعوة حيث بات آمنا في العيينة، وساعده أميرها عثمان بن معمر في تطبيق الدعوة عمليا، وتحولت الدعوة بذلك من الجانب النظري إلى الجانب العملي، ونشر الدعاة في المناطق المختلفة.

مظاهر التطبيق العملي لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العيينة:

(١) قطع الأشجار التي كان الناس (العامة) يتوسلون إليها ويتبركون بها.

(٢) هدم القبة المبنية على قبر، يقال إنه لزيد بن الخطاب رضي الله عنه، وكان الناس يتبركون به.

(٣) معاقبة من لم يؤد الصلاة جماعة في المسجد.

(٤) إرسال الدعاة إلى البلدان المجاورة.

(٥) رجم امرأة توافرت لديه فيها شروط الرجم.

وكان موضوع رجم المرأة من أهم ما قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد سبب انزعاجا كبيرا عند بعض العلماء، وزا من انزعاجهم أن الشيخ أعلن أن الأموال التي كان يحصل علي

بعض العلماء من الناس مقابل الفصل في قضاياهم تعد رشوة . فزاد ذلك من معارضة بعضهم لهم ، وكان من أشهر من عارضوه اثنان هما : الشيخ سليمان بن سحيم من الرياض . والشيخ عبدالله المويس من حرمة .

واشتدت المعارضة ضد الشيخ وضد دعوته ، وقد بدأ الشيخ سليمان بن سحيم بمعارضة الدعوة الإصلاحية أولا ، فأرسل إلى علماء البصرة والأحساء ، يطالبهم بمعاونته في تفنيد فكر الشيخ ومراسلة من لهم بهم صلة في نجد ، غير أن هذه المحاولة لم تفلح . فلجأ الشيخ سليمان بن سحيم إلى حيلة أخرى ضد الشيخ نفسه ، حيث أرسل إلى أمير الأحساء يحرضه ضد الشيخ ، وكان أمير الأحساء على علاقة وثيقة بأمير العيينة ، بل كان يعطي العيينة معونة سنوية ، وكانت لعثمان بن معمر مزرعة في الأحساء تدر عليه خيرا كثيرا كل عام ، فانتهز سليمان بن محمد أمير الأحساء هذه العلاقة ، وضغط على عثمان بن معمر مطالبا إياه بضرورة إخراج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة ، وإلا قطع عنه المعونة ، ومنعه من الحصول على دخل مزرعته . فكان ذلك سببا في خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة ، فإلى أين كانت وجهته ؟ هذا ما تجيب عنه السطور التالية ...

انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية :

خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ، بعد أن تنكر له عثمان بن معمر أمير العيينة الذي استجاب لضغوط سليمان بن محمد آل حميد حاكم الأحساء آنذاك ، فلماذا اختار الشيخ الدرعية ؟ وهل كان اختياره موفقا ؟

لقد كانت الدرعية من الإمارات النجدية القوية ، وقد شهدت استقرارا داخليا بعد أن تولى إمارتها الأمير محمد بن سعود سنة ١١٣٩هـ ، وكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية قد وصلتها ، واعتنق هذه الدعوة ثلاثة من الأسرة الحاكمة ، هم : مشاري بن سعود ، وثنيان بن سعود ، وعبد العزيز بن محمد بن سعود ، فالأولان أخوان للأمير الدرعية، والثالث ولده عبد العزيز .

وكانت الدرعية من قبل على عداء مع الأحساء ، وجرت بينهما صدامات حربية ، أظهرت فيها الدرعية قوة وبسالة ، جعلت الأحساء تحسب لها حسابا خاصا .

لقد كان اختيار الشيخ موفقا ؛ فالإمارة القوية ، والمستقرة، والتي يؤمن حكامها بضرورة الإصلاح ويسعون إليه ، ويساعدون الضعيف ، ويحلون مشكلات غيرهم ، مثل حل مشكلة الرياض الداخلية ، وتمكين حاكمها - دهام بن دواس- من ممارسة سلطانه

عليها ، إن مثل هذا كفيل بتحقيق ما كان يسعى إليه الشيخ حين عرض دعوته ، وكان من أهدافه إيجاد دولة قوية تسعى لتطبيق شرع الله بين الناس ، إيمانا من الشيخ بحكمة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : " إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

انتقل الشيخ – إذن – إلى الدرعية واتصل بآل سويلم، وكانوا من أنصار دعوته ، وهم من وجهاء الدرعية، وكان في ضيافتهم إلى أن جاءه الأمير محمد بن سعود ، ووعده الحماية والتأييد .

ويمكن تحديد أهم أسباب انتقال الشيخ إلى الدرعية في النقاط التالية : قوة الدرعية . ووجود عداء بين الدرعية والأحساء . واستقرار الدرعية الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. ووجود أنصار للدعوة في الدرعية ، مثل آل سويلم وغيرهم . ووصول الدعوة إلى البيت الحاكم (عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ومشاري وثنيان ابنا سعود ، وهما أخوان للأمير محمد بن سعود) .

وفي لقاء متميز جمع الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود في الدرعية سنة ١١٥٧ هـ تم الاتفاق على قيام دولة جديدة تسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، عرفت بالدولة

السعودية الأولى ، وقد اشترط الأمير محمد بن سعود شرطين لقيام هذه الدولة ، على أن يلتزم الأمير محمد بتأييد الدعوة الإصلاحية ونشرها ، وأن تكون الشئون الدينية في الدولة الناشئة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ونسله ، في حين تصبح الأمور السياسية في يد الأمير محمد بن سعود .

اتفاق الدرعية سنة ١١٥٧ هـ :

وشهدت الدرعية سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٤م) اتفاقا بالغ الأهمية بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود ، يقضي هذا الاتفاق بإقامة دولة تسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وحمايتها ،عرفت عند المؤرخين باسم **الدولة السعودية الأولى**، وقد التزم الأمير محمد بن سعود بحماية الدعوة ونشر مبادئها ، واستتباب الأمن في ربوع البلاد ، وتكوين دولة مترامية الأطراف ، والتزم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالبقاء في الدرعية إلى جوار الأمير يسانده ، ويعاضده ، ويفتي له ، ويقدم النصح اللازم ، وينشر الدعوة ، ويعلمها للناس . وقد صدق في الرجلين الأثر المرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما : " اثنان من أمتي إن صلحا صلح أمر الناس ، وإن فسدا فسد أمر الناس " فكان صلاح العالم والأمير سببا في قيام هذه الدولة على دعائم قوية ، لذلك لا نعجب

حين أسقطتها قوات الدولة العثمانية أن عادت الدولة من جديد ؛ لأن الفكر الصحيح بقي ثابتا راسخا في قلوب الناس ، ولما توفرت القيادة الرشيدة ، وتضافرت الجهود عادت الدولة فتية من جديد كما كانت .

وقد اشترط الأمير محمد بن سعود على الشيخ شرطين هما :

أولا : ألا يخرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الدرعية.

ثانيا : ألا يعترض على الأموال التي كان الأمير محمد يأخذها من الناس سنويا .

وقد وافق الشيخ على الشرط الأول ؛ لما فيه من المصلحة العاجلة والآجلة ، وفتح بابا آخر للشرط الثاني ، حين أخبر الأمير أن ما سيأتيه من أموال الزكاة سيكون أفضل ، ويكون شرعيا ، فقدم الشيخ بذلك البديل الشرعي ، ووافق الأمير على الفور لأنه يسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك من فطنة الأمير والشيخ معا .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ميزة مهمة تميز بها هذا الدين الحنيف ، وهي تقديم البديل الشرعي ، قال تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا

ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) (الحج:٧٨) .

الدرعية و انتشار الدعوة فيها :

أسهمت الدرعية بشكل مباشر في نشر دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب الذي كان لبقائه فيها ، وعدم خروجه منها وفق الشرط المبرم مع أميرها ، الأثر الكبير في تمكن الشيخ من متابعة الدعوة ونشرها في ظل دولة تقوى يوما بعد يوم .

وتمكن الشيخ من تأليف عدة كتب مثل كتاب كشف الشبهات ، وكتاب الكبائر والمسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ، وكتاب نصيحة المسلمين وغير ذلك من الكتب التي لها أثرها في نشر فكر الشيخ ودعوته .

وقد قامت الدرعية بتيسير مهمة الشيخ في نشر الدعوة ، وهيأت له المكان المناسب ليلتقي بطلاب العلم ، وليتابع انتشار الدعوة الإصلاحية ، كما أنها قامت على توحيد البلاد ، واتخذت من الدعوة الإصلاحية شعارا تدخل به البلاد ، فكانت تهتم بالعامل الديني ، وتجعله أهم الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها ، وتوحد بها أنحاء الجزيرة .

واستطاع آل سعود توحيد نجد ، وضم الأحساء إليها ، ونشر الدعوة في جنوبي غرب البلاد ، وجهات الخليج العربي وعمان ، والدخول بالدعوة الإصلاحية إلى أراضي الحجاز ، وقد حولت الدعوة من الإقليمية إلى الدولية ، حتى عرفت بها دولة الخلافة العثمانية ، وانتقلت الفكرة إلى أقطار إسلامية مختلفة ، وأدى ذلك إلى نشوب حروب ضد هذه الدولة ، انتهت بإنهائها مؤقتا .

تواريخ الحملة الفرنسية

التاريخ	الحدث
عام ١٧٩٨م ٢١ تموز (يوليو):	معركة الأهرام (امبابة)، بالقرب من القاهرة بين القوات الفرنسية وجيش الخيالة المملوكي، هُزم بها المماليك واحتل الفرنسيون القاهرة في ٢٢ تموز.
١ آب (أغسطس):	معركة النيل (أبي قير البحرية). بعد أن عثر القائد الانجليزي نلسون على الأسطول الفرنسي في ميناء أبي قير، شرقي الاسكندرية، استطاع الأسطول الانجليزي دون صعوبة في أن يُحطم ويدمر الأسطول الفرنسي، بسبب عجزه عن الحركة وتكدسه في المرسى، وهكذا أمكن نلسون أن يقطع الطريق البحرية بين نابليون وقواته وبين فرنسا.
عام ١٧٩٩م شباط (فبراير):	حملة نابليون على فلسطين وسوريا. غزا نابليون فلسطين طريق العريش وغزة، دخل يافا وفشل في الاستيلاء على عكا.
١٩ آذار (مارس):	وصول الجيش الفرنسي إلى مشارف مدينة عكا وفرض الحصار البري حول المدينة.
٢٠ أيار (مايو):	فك الحصار عن عكا، بعد أن فشل نابليون وجنوده باقتحام أسوار المدينة ورجوعه إلى مصر.
٢٥ تموز (يوليو):	معركة أبي قير (البرية) بين قوات نابليون وقوات العثمانيين، يساندهم الأسطول الانجليزي، لكن القوات الفرنسية استطاعت أن تتغلب عليهم وتلحق هزيمة ساحقة بالجيش التركي والانجليزي.
٢٤ آب (أغسطس):	نابليون يترك مصر عائداً إلى فرنسا ويخلفه بقيادة الجيش الجنرال كليبر.
عام ١٨٠٠م كانون الثاني (يناير):	اتفاق العريش بين قوات كليبر والأتراك الذي نص على جلاء القوات الفرنسية عن مصر.
آذار (مارس):	الانتصار الفرنسي في عين شمس، وبداية التمرد الثاني في القاهرة.
حزيران (يونيو):	الجنرال كليبر يُقتل ويخلفه في القيادة مينو
عام ١٨٠١م ٢١ آذار (مارس):	وصول القوات الانجليزية إلى أبي قير وانتصارهم على مينو والقوات الفرنسية بالقرب من الاسكندرية.
أيلول (سبتمبر):	جلاء القوات الفرنسية عن مصر وعودتها إلى فرنسا.

نصوص تاريخية

من كتاب عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي

سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

(وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الامور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الاهوال واختلاف احوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

(كانت الفرنسيس حين فلولهم بالإسكندرية ، كتبوا مرسوما ، وطبعوه ، وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقدمون عليها ؛ تطمينا لهم .

ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة ، وحضروا صحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ منهم مغاربة ، وفيهم جواسيس ، وهم على شكلهم من كفار مالطه ، ويعرفون باللغات ، وصورة ذلك المكتوب :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه .

من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة ، يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن ، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شيء ، فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم .

يا أيها المصريون .. قد قيل لكم : إنني ما نزلت بهذا الطرق إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك ، أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم :ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم ؟ حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر

وحدهم ؟ ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ؟

فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك ، فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم !!

ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

وسابقا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها الكوا للرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه .

ومع ذلك أن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم .

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم .

طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب .

لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو ابيض وكحلي واحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي ايضا تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة الائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل احد من اهالي البلدان ان يبقى في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغي ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي ادام الله اجلال السلطان العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية .

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من اقامه الجمهور الفرنساوي يعني في آخر شهر محرم سنة هجرية اهـ بحروفه)

من مراجع الدراسة :

أجنحة المكر الثلاثة للميداني ز.
الإسلام والدعوات الهدامة لأنور الجندي . .
احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام للدكتور سعد الدين السيد صالح . .
اكتشاف جزيرة العرب : جاكلين بيرين – ترجمة قدري قلعجي.
تاريخ الجبرتي،
تاريخ المملكة العربية السعودية د . عبد الله صالح العثيمين .
حاضر العالم الإسلامي – لوثرب ستودارد – ترجمة عجاج نويض .
حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لحمد أحمد العقيلي.
عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر .
كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار لأنور الجندي .
المؤامرة على الإسلام لأنور الجندي .
مذابح الإنجليز في الوطن العربي ، لعاطف السيد .

محتويات هذا الكتاب